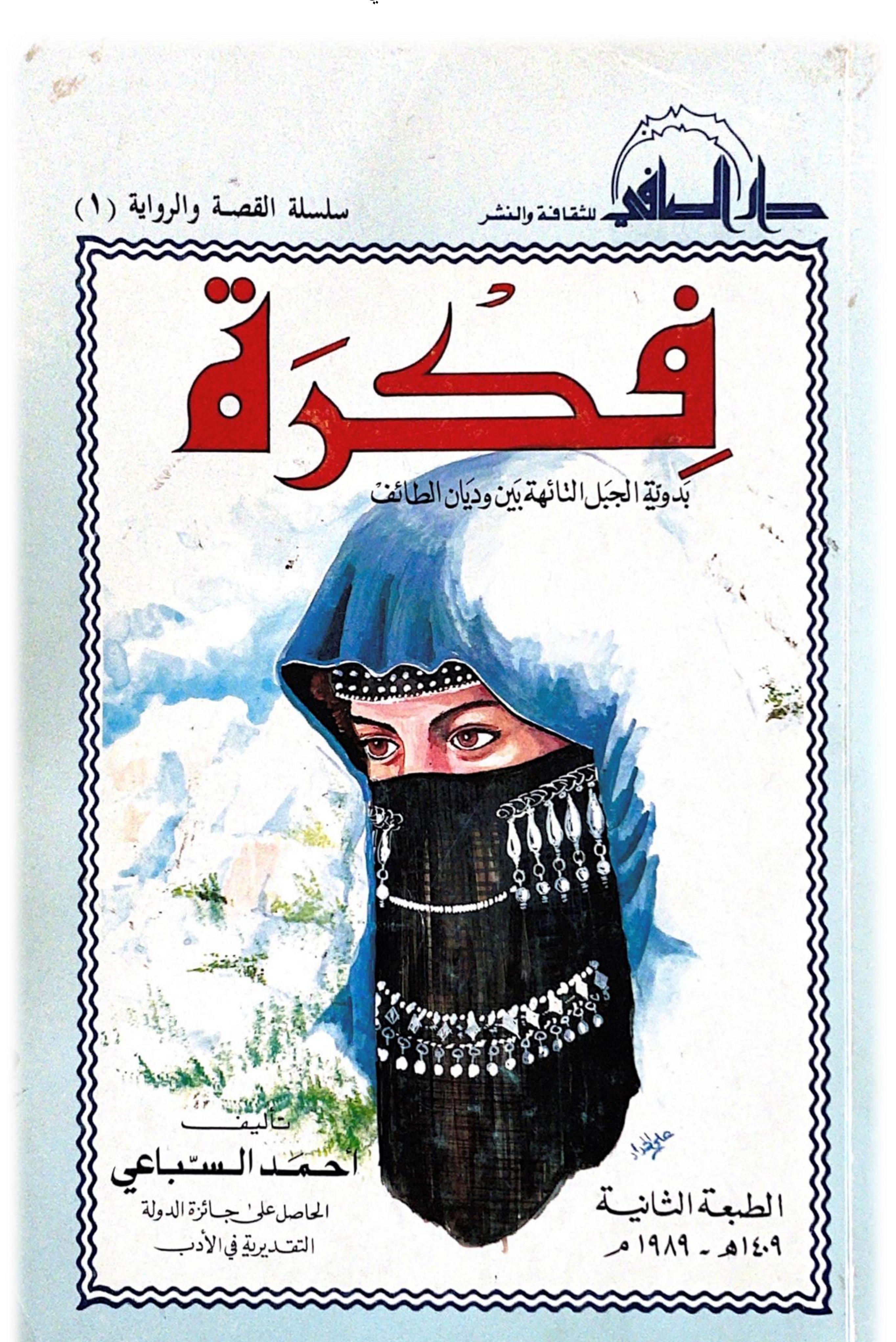
فكرة - بدوية الجبل التائهة بين وديان الطائف– للأديب أحمد السباعي رحمه الله تعالى



بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الإِهداء

أحمدك اللَّهم على ما أوليت..

وأستغفرك فيما لويت..

وأصلّي وأسلّم على خير من اصطفيت..

إهداء الطبعة الأولى

ولديّ.. أسامة وزهير:

لا يتجه فكري قط، أن أعنى بإهداء قصتي لغيركما، لأني لا أستطيع أن أخادع فأدَّعي أني أوثر أحداً عليكما، أو أوليه ما أوليكما من وفاء وإخلاص.

ستقرآن في قصتي نوعاً من الأفكار التي تساورني في حياتي، وتجدان فيها مثلاً من المُثل التي عشت أحلم بها، ولم أحقق لنفسي شيئاً منها.. ذلك لأن في ملابسات تكويني وتربيتي ما لم يهيئني لها.

فشاركاني الأسف على ما فرط، وساعداني ما استطعتما على تحقيق أحلامي فيكما، حاولا جهدكما أن تكونا سادة فيما ترتئيان، وأن تكبرا على كل تقليد لا يصدره علم صحيح أو منطق سليم.

ولديّ .. أسامة وزهير :

لا يتجه فكري قط ، أن أُعنى بإهداء قصتي لغيركما ، لأني لا أستطيع أن أخادع فأدَّعي أني أوثر أحداً عليكما ، أو أوليه ما أوليكما من وفاء وإخلاص .

ستقرآن في قصتي نوعاً من الأفكار التي تساورني في حياتي ، وتجدان فيها مثلاً من المثل التي عشت أحلم بها ، ولم أحقق لنفسي شيئاً منها .. ذلك لأن في ملابسات تكويني وتربيتي ما لم يهيئني لها .

فشاركاني الأسف على ما فرط ، وساعداني ما استطعتما على تحقيق أحلامي فيكما ، حاولا جهدكما أن تكونا سادة فيما ترتئيان ، وأن تكبرا على كل تقليد لا يصدره علم صحيح أو منطق سليم .

توطئة الطبعة الأولى

لا أعرفُ بالضبط أول مؤلِّف فكر في أن يلتمس لإنتاجه ((كبيراً)) من أُدباء الجيل، يقدمه بفذلكة قصيرة، أو فصل مطول.. ولكنني أعرف أنه كان مهرِّجاً إلى حد!.. وأن فيما ابتدعه شيئاً من الشعوذة والحيلة، وشيئاً آخر من الاستجداء.

وأكبر ظني أنه في اليوم الذي دالت فيه دولة التقاريظ، واستفتاح المؤلفات بالسجع المقفّى، الذي يطري المؤلّفين ويرتفع بهم إلى مقام وحيد العصر، وفريد الدهر.. حل التقديم المفوَّف، والثناء المبطّن، محل ذلك البهرج المكشوف.

لنترك هذا إلى الطريق المطمئن، ولْنبدأ فيما ننتج مجردين من الصنعة.

بين يدي القارئ اليوم، قصة فتاة عاشت لأفكارها، ودانت لما تعتقد، ولم تخضع قط لتقليد لا يؤيده منطق، أو تدعمه بيِّنة واضحة.

وهي على ما يتألق في أهدابها الوُطْف، وأعيانها الدُّعْج، ومحيَّاها المشرق، تأبى إلاّ أن تعيش العيش الخشن، وتجالد مجالدة الأقوياء، ضد أوجاع الحياة، وتسخر سخرية الفلاسفة بأوجاع المجتمع.

ويصادفها شاب عاش لرجولته وأخلاقه السامية، بقدر ما ترفَّع عن تهافت الشباب الرقيع، فيأبى عليه سوء طالعه، أو حسنه إن شئت؛ أن تتفتح نفسه لما تألَّق في أهدابها وأجفانها، ويسحره ما أشرق في محيَّاها من الفتنة، فيغدو صريع هواها، وتغدو ساخرة بأفكاره التقليدية في الحب والحياة.

فهي تفلسف الحب، في شكله الأخير، فتعدُّه غلطة الأجيال والحقوب.. تحدرت إلينا في أسلوب كانت القصة والوضع أهم عناصره.

وهي ترى أن الرباط الذي يشدنا إلى ((العرف)) قد أحكم وثاقه حتى بتنا نتشبث به تشبثاً بشيء مقدَّس، وإن كان بعيداً عن المنطق والعقل، بعيداً عن الدين!

وتفضي المصادفة بينهما إلى صداقة أخذت تتنامى مع الأيام، فكانا يمضيان معاً في مذاهب كثيرة في ضواحي الطائف، ويتمتعان بينها بمشاهد جميلة أخَّاذة، ومناظر طبيعية فاتنة، ويتناول حديثهما صنوفاً شتّى من ألوان الحياة ومناحيها بالتفنيد والتعقيب، في روح الساخر بأوضاعها، الهازىء بتقاليدها.

وتمضي بهم القصة، أو يمضيان فيها إلى نهاية لا أستبق القارىء بها، ولا أوشّي بين يديها بكلمة.. وحسب القارىء أن يمضي في لِيَّته –إذا شاء– مجرداً من التهيئة والإعداد!

المؤلف

مقدمة

الطبعة الثانية

يشرّفنا أن نعيد طبع رواية ((فكرة)) لوالدنا أحمد السباعي –يرحمه الله– بعد أن مضى على طبعتها الأولى نحو اثنين وأربعين عاماً.

فرغم أن الطبعة الأولى ظهرت غفلاً من السنة التي ظهرت فيها، إلاّ أننا لا زلنا نذكر تاريخ صدور هذه الرواية، ونحن في سنوات عمرنا الأولى، حين كنا في أول عهدنا بالتعليم.. وكان ذلك في عام 1367هـ–1947م.

لقد أسعدنا –آنذاك– أن يُهدي إلينا والدُنا هذه الرواية، ونحن لمَّا نزل بعد دون الإدراك لأبعاد هذا الإهداء. وما إن شققنا طريقنا في مدارج التعليم، حتى قرَّت في نفسيتنا حقيقتان:

الحقيقة الأولى :تتمثل في أبعاد هذا الإهداء، الذي أراد به والدنا أن يبثَّ به في روحنا الاعتداد بالنفس، وأن يحضَّنا من خلاله، على التعليم.. سبيلاً إلى تحقيق الذات والاستقلال في الرأي، وعدم التسليم بمظاهر الأشياء، دون أن يحكمها منطق أو يسندها علم.

لقد كانت ((فكرة)) سبيله إلى محاولة غرس هذه الخصال في نفسيتنا والله يعلم إلى أي مدى تحققت آماله فينا!

والحقيقة الثانية :إن هذه الرواية، تمثل باكورة الإِنتاج الأدبي لأحمد السباعي.. فقد كتبها في مقتبل عمره، لذلك، ربما لم يكن ليتوفر لـ ((فِكْرَة)) بعض ((تكنيك)) القصة الحديثة، خاصة وأن فن القصة يعدُّ من الأشكال الأدبية الجديدة التي عرفتها بلادنا، بعد صدور الرواية بعقدين من

الزمان. فلم يكن السباعي –إذن في ((فكرة)) –قاصاً بالمعيار الفني المتعارف عليه اليوم، بقدر ما كان فيها مربياً ومصلحاً اجتماعياً.

ولعلّنا لا نذيع سراً إذا قلنا إن والدنا نفسه، لم يكن لينظر إلى ((فكرة)) أنها رواية، بما تحمله الرواية من عناصر فنية.. لذلك أخذ يجري عليها –في آخر سني حياته– بعض التعديلات، تمهيداً لإعادة طبعها، إلاّ أن صحته لم تساعده على إكمال المشوار. وهذا ممّا يعطي دلالة على أنه كان في شيخوخته ينظر إلى القصة بمنظار اختلف عن المنظار الذي نظر به إلى ((فكرة))، وأنه لو كان كتبها وهو في قمة نضجه الأدبي لاختلفت في تكوينها وعناصرها عمّا كانت عليه حين ألَّفها في شرخ شبابه الأدبي.

إن فكرة الرواية –وهي تمثل بدايات القصة السعودية– لم تكن سوى رمز طموحٍ وآمال المرحلة التي كان يعيشها. و ((فكرة)) (البطلة) لم تكن إلاّ نموذجاً لأفكار المؤلِّف.. فما علمنا أن هناك فتاة تُسمّى (فكرة)!

لقد جسَّدت الرواية واقع المجتمع، تجسيداً أميناً، كما صورت البيئة البدوية حياتها وطبيعتها تصويراً رائعاً.. من خلال شخصية خيالية.

((ففكرة)) إذن، فلسفة ومبادئ، أكثر منها فتاة تعيش بين السهول وتتنقَّل بين الجبال!

إنها رواية قدمها إلى القارئ لتحمل فلسفته ونظرياته في إصلاح المجتمع على لسان ((فكرة)) (الفتاة)، في حوارها مع ((سالم)) (بطل القصة) لتمثل المرأة التي حلم بها في يوم من الأيام أن تنال حظها من الثقافة والتعليم.

ورغم الجدل والمعارك الأدبية التي أثارتها هذه الرواية والتي كان قطباها الأساتذة: عبد الله عبد الجبار، وأحمد محمد جمال، وعبد العزيز الرفاعي، من جانب، وأحمد عبد الغفور عطار، من جانب آخر.. رغم هذا الجدل، فإنها تظل الرواية التي استطاع السباعي من خلالها أن يُعدَّ من أوائل السعوديين الذين كتبوا القصة، وربما كان من أوائل من وصفوا البيئة البدوية في القَصَصِ السعودي.

ونحن نعيد طباعة ((فكرة)) إنَّما نقدمها من منطلق الاهتمام بإحياء التراث الأدبي، الذي قد يجهله القارئ المعاصر، بصرف النظر عن موقفه من ذلك التراث. لذلك فقد حرصنا على استبقاء القصة كما ظهرت في طبعتها الأولى، بصفتها وثيقة أدبية، ونصاً من نصوص الإبداع الأدبي الذي يُعد جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الأدبي السعودي.. فلم نقم بإجراء أي حذف يخلُّ بجوهر القصة، أو تعديل يشوِّه مسار أحداثها، أو إضافة تغيِّر سياق المعاني التي أرادها المؤلف.

أبقيناها –كما هي– أثراً أدبياً، يترجم البيئة الحجازية، فأفكارها وعواطفها، في أوائل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، ممتزجة بثروة من أفكار مؤلفها وفلسفته.. عبر انعكاسات وجدانية تذكِّيها صور خيالية، تكسبها استمتاعاً فنياً، وتغذيها عاطفة صادقة، بأسلوب ممتع شيِّق، يحمل القارىء على تقبُّل أفكارٍ ومُثُلٍ كانت تبدو –في ذلك الوقت– غريبة عن المجتمع!

لم نقم بإجراء أية معالجة فيها، إلاّ ما أجرى عليها قلمه –قبل وفاته– في أجزاء متفرقة من النص، أو ما اقتضته دواعي اللغة أو التعديلات الطباعية الضرورية التي فاتت على الدار الناشرة ((دار الكتاب بمصر)) أن تجريها، لضعف الإمكانات الطباعية في ذلك الوقت.

وبعد..

هذه ((فكرة))– كما ألَّفها أحمد السباعي– في طبعتها الأولى. نقدمها إلى القارئ في طبعتها الثانية.. متطلِّعين أن نكون قد أدينا، من خلالها، شيئاً من واجب أبوُّة أحمد السباعي لنا.. متضرِّعين إلى الله أن يجزيه عنا خير الجزاء، ويُحْسِن إليه. في رفيقه الأعلى، بما يُحْسِن به الصالحين.. مستلهمين من الله العون والتوفيق والسداد.

ولداك:

أسامة وزهير السباعي

غرة محرم 1409هـ –أغسطس 1988م

أحمد السباعي.. في سطور

-وُلد في عام 1323هـ في مكة المكرمة.

-التحق بمدرسة المسعى الابتدائية ((المدرسة الهاشمية)) (صف حفّاظ القرآن) حتى ختم حفظ القرآن بعد ثلاث سنوات.

-التحق بالمدرسة الراقية بجبل هندي (مدرسة متوسطة).

-تُوفي والده، وعمر أحمد السباعي 15 عاماً، فاضطر إلى ترك المدرسة لإعالة أهله.

-عمل في عدة أعمال حرفية ويدوية لبضع سنوات.

-التحق بمديرية المعارف، كمدرس في إحدى المدارس الحكومية مدرسة دار الفائزين –بمرتب قدره 13ريالاً شهرياً–، واستمر في التدريس عشر سنوات.

-تعشَّق القراءة فأكثر منها، ممّا أهَّله إلى أن يكتب في صحيفة ((صوت الحجاز)) التي كان يصدرها في مكة الشيخ محمد صالح نصيف، وتعاقب عليها عدة رؤساء تحرير كان أولهم الشيخ عبد الوهاب آشي –يرحمه الله.–

-أول مقال نُشر له في صوت الحجاز، على عهد الأستاذ محمد حسن فقي.

-عمل محرراً في الصحيفة نفسها، ثم ما لبث أن أصبح مديراً للإدارة ومساهماً مع نخبة من الشبان في رئاسة تحريرها.

-أصبح مديراً لشركة الطبع والنشر التي كان قد آل إليها امتياز إصدار الجريدة. فرئيساً للتحرير.

-انتقل عمله إلى وزارة المالية، وتدرج في وظائفها حتى أصبح مفتشاً مالياً فيها.

–عُيِّن سكرتيراً عاماً للإذاعة السعودية (في أول تأسيسها بجدة)، مع الاحتفاظ له بوظيفته في وزارة المالية.

–عاد إلى وزارة المالية ثم عُيِّن ممثلاً مالياً، حتى أُحيل إلى التقاعد في عام 1370هـ.

–أسس مطبعة الحرم في عام 1370هـ.

–أصدر جريدة ((الندوة)) في عام 1377هـ، فكان صاحب امتياز لها ورئيس تحريرها، وحوَّل اسم المطبعة إلى ((مطابع الندوة)) حتّى تم دمج الصحيفة إلى صحيفة حراء باسم الندوة، وآلت ملكيتها إلى الأستاذ صالح جمال، ثم آلت إلى ((مؤسسة مكة للصحافة والنشر)).

–أصدر مجلة قريش في عام 1380هـ حتى توقّفت عن الصدور بتحويل الصحف والمجلات إلى مؤسسات أهلية، في عام 1383هـ.

–أسس ((مسرح قريش الإسلامي)) الذي أُقفل قبل افتتاحه بأسبوع.

–كان عضواً في ((جمعية الإسعاف)) في عام 1355هـ.

–كما كان عضواً في جمعية تشجيع الطيران في عام 1356هـ.

–وعضواً في لجنة تأسيس نظام المطبوعات في عام 1375هـ.

–وعضواً في وفد المملكة في مؤتمر الأدباء العرب في الكويت (لمرتين).

–حاز على براءة تكريم الأدباء السعوديين من خلال المؤتمر الأول للأدباء السعوديين في عام 1395هـ.

–نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب، واستلم جائزتها في الحفل التكريمي الذي أقامته الرئاسة العامة لرعاية الشباب، في عام 1404هـ، وشرَّفه خادم الحرمين

الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز. فكرَّم أحمد السباعي، وحمد الجاسر، وعبد الله بن خميس في ذلك الحفل كروّاد للأدب.

–أسهم بالكتابة في الصحف السعودية، وبعض الصحف غير السعودية لمدة خمسين عاماً.. تناولت القضايا الأدبية والاجتماعية والإسلامية.

–بلغ عدد مؤلفاته (16) مؤلَّفاً في الشؤون التاريخية والأدبية والتربوية والاجتماعية.

–تُوفي في الطائف بالمستشفى العسكري بالهدى، يوم الثلاثاء 1404/12/16هـ، ودُفن في مقبرة المعلاة بمكة المكرمة.

(1)

صادفها تدلج في هدأة الليل الأخيرة، ملتمسة طريقها بين منعرجات وادٍ من الوديان الكثيرة الملتوية فِي ضواحي الطائف، وصافحت عيناه في ومضة البرق وجهاً كامل الاستدارة، وعينين تأتلقان في محيّا ذابل، وقسمات تنطق بالصبا على جسم ملفوف في ثوب طويل فضفاض.

كانت خطواتها متزنة رشيقة، تدل في ثباتها على القوة، وفي نشاطها على الصبا، وأرخت عن رأسها صرة فيها شيء من العيش وبعض اللحم المقدد، وجلست بجانبها على شرف في مسيل الوادي.. تقضم محتوياتها في سرور وغبطة ظاهرين.

وأحسَّت به يسرق خطواته في هونٍ ورفقٍ إليها، فاستشعرت الريبة، وصاحت به في لهجة الغاضب: رُح في طريقك يا هذا!!

ولم يكن شاباً من الطراز الرفيع المتهافت على الخطيئة والإثم.. بل كان مثالياً يسمو برجولته وسمو أخلاقه على الريبة والظن، وتنطوي نفسه على إنسانية عالية قليلة المثال.

كَبُرَ عليه أن يمضي في طريقه دون إنسانة تنطوي على نفسها، في هذا الطريق القفر، وراق له أن تغضب لريبتها فيه، وأن تستأسد أمامه في وديان ضالة، فحث خُطاه نحوها وهو يقول:

–سأمضي في طريقي.. ولكني جائع!!

–لا يجوع مثلك وأنت فيما تبدو مترفاً، وليس في صُرَّتي ما يتبلغ به مترف، فخذ طريقك!

–أمّا أن صُرَّتك ليس فيها طعام مترف فصحيح.. ولكني جائع.. والجوع لا يعرف الترف، ثم إني ضال، وفي حكم أبناء السبيل.. وأبناء السبيل إخوان.

وشذرت بعينها، ولوَّحت برأسها، كمن يريد أن يقول شيئاً، ثم أشارت إلى ناحية صرَّتها وقالت:

–إذا وجدت بها ما تستسيغ.. فدونك!!

كانت إجابة أبرز ما فيها الاقتضاب، في نبرة منطلقة.. اعتبرها صاحبنا، إذناً بالدنو، وجوازاً بالتغلغل والتعمّق!

كلاهما ابن سبيل.. هي في انقطاعها في هذه الوديان المقفرة، وافتقادها إلى حجر يؤويها كما ظن.. وهو فيما اختاره لنفسه من التجوّل، والضرب في آفاق الأرض النائية.

وتألق الجو بومضات من البرق خاطفة، فعكست أضواءها على جبين ناصع غض الشباب، وأنف أقني وسيم، وولولت الريح آتية من الشمال، فعصفت بخمارها فنضا عن شعر مغدودن مرسل.

واشتد هزيم العاصفة، فاقتلعت شجرةً قويةً في منحدر التل، وألقتها على أحجار كبيرة، فارتطمت بالصخور وأزاحتها، فكنت تسمع لقعقعتها وهي تنحدر في مسيل الوادي، دوياً يثير الرعب ويشيع الفزع.

وأربدَّ الجو، ودمدم الرعد، وانجابت الغيوم عن هطيل مدرار، سالت به الهضاب والروابي، وانحدر في رعونة وجنون في منعرجات الطريق إلى بطن الوادي.

انطوت الفتاة على نفسها، وجمعت أطراف ثوبها إليها، تحتمي به من المطر الوابل، وتقدم صاحبنا منها في دعة، وتلطّف يسأل أن تثق بمروءته، وتعتمد ذراعه ليبلغ بها مأمناً يقيها العواصف والمطر.

ولم يمضِ بها إلاّ قليلاً على حوافي الوادي حتى وجد مأمنها في كهف صغير مرتفع عن الطريق، انتهى بها إليه، وهيَّأ مكاناً لراحتها، وقال وهو يولِّيها ظهره:

–ما عليك إلاّ أن تنزعي ثوبك الخارجي، وتنشريه على باب الكوخ، ثم تأخذي قسطك من الراحة، وسأتولّى حراستك عن كثب من الكهف.

(2)

أدهشتها تصرفات الرجل، وأكبرت فيه مروءته ورجولته، وهالتها رخاوتها واستسلامها إلى غريزة الأنوثة، وهي ربيبة الوعور والجبال. واستشعرت الجد والشجاعة، وبرزت لمواجهته كما يبرز الفارس الواثق من كفاءته أمام الند:

–خلِّ عنك يا هذا.. فلست من ربَّات الخدور، ولا عانسات القصور.. إني بنت هذي الجبال العاتية؛ درجت في عورها، واكتسبت من صلابتها، ومُرِّنت على قساوتها، ولقيت بين يبابها ما هو أشد هولاً من لقياك. ستجد في هذه الشاخصة أمامك امرأة غريبة تبرز للند، وتقابل الكفء.. تجزيه عن مروءته فضلاً، وعن خسته شرَّ ما يجزى به أثيم. ولست بالمرتابة فيك، وقد شهدت نبلك، أو الخائفة من استدراجك ولو كنت الشيطان!!

كان يستمع إليها وفي صوتها هزيم الرعد، وعلى ملامحها سِيمَا الصرامة والجد، وفي حركتها حركات المعتدِّ بنفسه، الواثق من حقيقتها. فما ملك أن أطرق خاشعاً لقوة روحها، وشدة شكيمتها.

وخفَّت إليه، وشدَّت ذراعه واجتذبته في قوة، إلى ما هيأ في الكهف لاستراحتها وقالت:

–لست أنا التي يوطأ الوعر لراحتي، إنما لأمثالك المترفين يمهِّد الفَرْش الوثير اللين، وتكفيني حصاة من هذا أنطوي عليها، كما تنطوي العنزة على نفسها بين الصخور!!

عمدت إلى كمِّها فشمرته عن زند؛ صُبَّ في قالب مصقول، كأنه مرآة جليت من ليلتها، ثم ضربت بكفيها وانطلقت من الكهف تغدو منحدرة إلى السهل في خفة القطا!!!

ولم تغبْ إلاّ قليلاً، ثم عادت وعلى رأسها حزمة من الحشيش الجاف والحطب، وفي يدها وعاء طافح بالماء وقالت:

–إنني حاولت جمعها من بين زوايا الجبل.. جافة لم تمسسها بالماء وابلها.

جمعت الحشيش في الجزء الممهَّد، ثم سوَّته بيدها حتى استوى فرشاً وثيراً، ثم أشارت إليه بالجلوس وفي عينيها المتألقتين صرامة الحاكم، وعطفت إلى الأعواد اليابسة تجمعها وتضرم النار فيها، ثم تدنيها بكفها إلى ناحيته، وتأخذ بكفه إليها قائلة:

–تذوّق لذة الاصطلاء على لهب مستعر في كهف خشن.

ودارت على عقبها، فتناولت صرَّتها، وبدأت تأخذ القطعة من الخبز فتغمرها في وعاء الماء، ثم تدنيها من النار وتعمد إلى الواحدة من شرائح اللحم المقدد فتعيد شواءها وتقدّم له لقمة طازجة لذيذة، ومدَّت يدها إلى آنية للقهوة تحتفظ بها في صرتها مع شيء من البن المطحون، فهيَّأت له قهوة يطفو عليها الحباب.. كانت نكهتها وهو يدنيها من فمه شيئاً جديداً، ما تذوقه قبل اليوم في كل ما شرب من قهوة!

كان كل ما أحاط به غريباً عليه.. تكأة على وثيرة من الحشيش الجاف أمام شواء مرتجل، وقهوة طازجة، في جوف مغارة، بين يدي فتاة جميلة في ريعان

الصبا، توليه من عنايتها ما يُدلِّلُه، ومن نضوجها ما يبخر أحلامه في الجمال ويبددها..!

كان الليل قد أوفى على نهايته، وبدأت خيوط الفجر تلمع في برك الماء الصغيرة المتجمعة حول الكهف من ماء المطر، وكان الجو خارج الكهف مقروراً، والسماء لا تكف تدرّ في غزارة، فتجتمع المياه بين فجوات الصخور وتجري في جدول منحدرة إلى الوادي في انسياب وصفاء، وفقاقيع الماء ترقص في الحفر المنتشرة على طول انحدار الجبل، في شكل جذاب جميل.

وخفَّ صاحبنا إلى باب الكهف يستقرئ حالة الجو، فأخذه منظر الطبيعة تلمع في أفقه خيوط الفجر، فأهاب بفتاته أن تشاركه متعة هذا الجمال، فلبَّت سريعة، ووقفت إلى جانبه معتمدة على حجر ناتئ يفصلها عنه، فبدت بقامتها المعتدلة تمثالاً حياً ينطق بالجاذبية والجمال!

قال وهو يشير إلى سحابة داكنة على الحافة القصوى من الوادي:

–أظننا في يوم ماطر عتيد؟

فأجابت وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة رضية.

–والمترفون يخافون المطر!!

قال:

–وجمل الصحراء، وعنز البادية، وغزال الجبل يتَّقون المطر ما أمكنهم ذلك!

فما ملكت أن انفرجت شفتاها عن ضحكة عالية، ثم تكلَّفت الجِدَّ أكثر من ذي قبل، وقالت:

–وما تعني؟.. أترى هذه البادية، وكم فيها من وضوحِ وبساطة؟ إنني ابنتها يا صاحبي، واضحة كهذه الشمس المشرقة، رغم السحاب المتراكم، بسيطة بساطة هذه السهول المترامية، فلا تحاول أن تلوي أو تحاجي!

–لست ألوِي!.. ولكنك ترتابين..! ولا أحاجي.. ولكنك تحاولين أن تأخذي فكرة عني.. هي أقرب إلى ريبتك منها إلى حقيقتي!

–إنك عميق شأن الحضر!.. وإذا شئت فهنا مقيلنا اليوم بين القديد والقهوة.. فكن فصيحاً لأعرف موضع ريبتي، وسأكون واضحة لأتعرَّف مدى عمقك.

(3)

وعاد إلى مجلسهما من الكوخ، وهي تقدم إليه فنجان القهوة:

–ليتني أعرف مَن تكون، ومن أي الحضر أنت؟ وفيمَ هذا الإمعان الضال في الليل البهيم وبين مسالك وعرة غير مطروقة؟.

–أمّا أنا فمكيّ من بني هاشم، ثم من بني عبد مناف، عاش أجدادي عيشك هذا في ظلال مثل هذه السفوح، وتمتعوا بفطرتهم السليمة، بين مناظر الطبيعة البريئة، ثم تحضَّروا على مر الحقوب، فنشأت أنا بين خمائل القصور، وهين العيش، ففقدت صرامة بني هاشم، وبساطة عبد مناف، ولكن لم أفقد شيمتهم وإباءهم.. وينزع بي عرق دساس إلى هذه الطبيعة العارية؛ فيسلس لها قيادي، وأمضي الفينة بعد الأخرى أرود جبالها الشم، وفيافيها الوعرة، إلى غير طوية، إلاّ أني أستجيب إلى ما تنزع إليه نفسي، ويدفعني إليه هوى طاغٍ!

قالت وهي تتحسس موضع كُمِّها من زندها وتعيده مطوياً إلى مرفقها:

–وقد عثرت من ليلتك على عنز الجبل ضالة منفردة، فاستأسدت، ودعاك حنين الأجداد الصِّيد، إلى صَيْد البيد!

–هي ذي ريبتك المستغلقة!!

–أبداً، ولكنني أمزح.. ولست في نظر نفسي عنزاً ضالة، ولكني ذئبة رئبال، أرود الفيافي وأنا واثقة ممّا أرود، وأتعرَّض للأهوال، وأنا موقنة بنفسي عارفة لما أتعرض.

قالت هذا وكشفت في فتق من جيبها عن سكين لامعة النصل تمنطق خصرها الرقيق.

قال وقد أخذه الدَّهَش، وملكته الروعة:

–لست آمن أن تكوني من غير بنات الإنس، تتنكرين في مثل هذه الثياب عبثاً بالمارة!

–لا يا صاحبي.. لست إلاّ من بنات الإنس!.. ولست عابثة كما تتوهم.. إن في احتفاظي بالسلاح أسباباً.. إنها نقطة السر في حياتي التي ستستمع فيها إلى قصة من أروع ما قرأت من قصص.

ستدَّعي بعد اليوم –وأنت صادق– أنك بتأثير قوي لا أفهم كنهه، استطعت أن تفتح مغلقاً في نفسي ما فتحه غيرك، وتعرف من أمري ما ظل إلى اليوم سراً مطوياً!

إنني يا هذا من بنات قرية (...) في شمالي الطائف. كان أبي –ولعلّ في إطلاق كلمة أبي على ذلك العجوز الطيب، تجاوزاً كما كنت أسمع من بعض المتشككين– لأني ربيت في حِجْرِهِ، دون أن أعرف لي أباً، ونشأت على اعتباره أباً، كما كان يُسمّي نفسه، وكما كنت أفهم قبل أن يخالجني الشك!..

كان أبي هذا معلم القرية وفقيهها، وإمام السقيفة الصغيرة التي يُطلق عليها مسجداً يصلى فيها، ويعلّم بعض الصبيان. وقد نشأت كخادم لهذه السقيفة، أُعنى بتنظيفها وإضاءتها، وترتيب ألواح الصبيان فيها، وكنت إذا فرغت من عملي عند مجيء الصبيان، شاركتهم القراءة والتهجِّي، حتى تفتحت عيناي على ذلك، ولاحظ أبي أن في استطاعتي مساعدته في تحفيظ المبتدئين، فوكل ذلك إليّ، ومن ثم ظل يُعنى بي عناية خاصة، بعد خروج الصبيان، إلى أن هيَّأني لكتابة ألواح المبتدئين، وتفتَّحت عيناي، بالتدريج، على القراءة والخط.

ولاحظ أبي استعدادي لمعونته، فكان يشركني في تعليم الأطفال حتى فوق المبتدئين. وفي المرات التي كان يتغيّب فيها عن الكتَّاب لشأن من شؤونه الكثيرة في القبائل المجاورة، كنت أتولّى عمله.. وكان الأطفال ينادونني بالفقيهة، وكذلك فعل نساء القرية ورجالها.

وشعر أبي أنني في حاجة إلى أن يزوّدني بأكثر ممّا يقتضيه محيط الكتّاب، فترك بين يديّ كتاباً في القصص؛ فالتهمته بروح الجائع. ورأى من قراءتي ما سرَّه، فمنحني كتاباً في الحديث، وطلب إليّ أن أقرأ عليه في كل يوم جزءاً منه، ثم يعقب بمناقشتي، فشعرت بالميل الشديد إلى إتمامه في بضعة أيام، وقد كان.. وتفتحت روحي لمعانيه، فكنت أُسابق أبي إلى حلها، فيسره ذلك مني، ويربت على كتفي في حبور وبهجة.

وانقضت سنة وأخرى، كنت في نهايتها قد أوفيت على قراءة المصحف بكامله، وفرغت من كتاب الحديث الذي ذكرت، وشرعت في مطالعة كتاب من كتب التفسير، فتوسعتْ آفاقي، وشعرتُ بميل شديد إلى قراءة كل ما يقع تحت بصري.

وزار قريتنا في إحدى المرات موظف عجوز في طريقه إلى مهمة رسمية، فلفت نظره مرأى فتاة صغيرة، تتفيأ خميلة وارفة على ضفة جدول، في يدها كتاب تتصفحه! فترجَّل عن دابته، وخطا إلى ناحيتي، وابتسامة شائعة في محيّاه، ثم تناول الكتاب، فإذا هو للعلامة (ابن حزم)، فوضع يده على صفحة منه، وطلب إليّ أن أقرأ، فاندفعت في قراءة الصفحة بكاملها، وبدأتُ الثانية، فاستوقفني، وشرع يناقشني في معانيها، فكنت أتعثَّر في أكثرها، ولكني أجيب

إجابة صحيحة في أقلها. فأخذه العجب، وسألني عن أبي، فما إن عرف أنه معلِّم القرية حتى قال لي:

–سأبعث إليك باسمه بعضاً من كتب الأدب والشعر، فاحرصي على قراءتها.

فأطرقتُ برأسي، وشكرتُ له عنايته في كلمات قصيرة.

وكان العجوز يهبط قريتنا كثيراً في ذهابه وإيابه، وكان في كل مرة يبعث إلى أبي باحثاً عني، فيأمرني أبي بمقابلته، فأقابله، وأقرأ بين يديه.. وكان لا يقبل مني قراءة ما، حتى يستوضح معناها، فكنت أصيب تدريجياً في الكثير، وأخطئ في النادر القليل.

وفي إحدى المرات ناولني مجموعة كاملة لمجلة بيروتية، تعنى بالدِّين والأدب والاجتماع، فجعلتها سلوتي في الليالي المقمرة؛ فكنت أقرأ حتى إعلاناتها القضائية والتجارية!

وشعرت بعدها أنني في حاجة إلى تنظيم قراءتي، فابتدأت بالتاريخ.. درست أيام العرب وحروبها، وعهد النبي صلى الله عليه وسلم، وغزواته، وسيرته الخاصة، ومضيت فيما بعد ذلك من أحوال الخلفاء، فقرأت أكثر ما كتب عنهم، وكوَّنت لنفسي رأياً خاصاً في ذلك، ودرست دويلات الإسلام، وقرأتُ نِحَلَهم وأكثر مذاهبهم، وقرأتُ العهود الثلاثة؛ العثماني، والهاشمي، والسعودي. وأمعنتُ في دراسة النقط الفارقة لكل عهد على حدّه.

وزادت صلة أبي بالموظف العجوز، إلى أن امّحلَّت ديارنا، وجفَّت آبارنا في بعض السنين، فهبط بي أبي إلى مكة، فكنا ضيوفاً بدار الموظف الذي حباني

بالكثير من حنانه، وساعد على تنظيم قراءاتي، وكانت له مكتبة عامرة؛ وجدت فيها ما أنشد، وتركني والدي أتفرّغ لقراءة ما أريد، ولم يمنع العجوز عني شيئاً تناولته يدي، حتى أن ما يحظر على الفتاة قراءته في العادة، كان لا يحظره عليّ. وقد سمعته مرة يقول:

إني لا أخاف على المتديِّن من ألف كتاب مستهتر!!

واعتزم السفر إلى الآستانة، وكنا نزلاء عنده، فتمنّى على أبي أن يتركني لأصحبه في رحلته، فتمانع قليلاً، ثم نزل على إرادته وأصبحت يوماً، فإذا السفينة تقلع بنا، تمخر العباب في طريقها إلى السويس. وأقمنا يوماً في السويس، وعشرين يوماً بين الإسكندرية والقاهرة؛ نزلت فيها عن كثير من ملابسي، وأكثر من الكثير من عاداتي، وانغمرتُ في لجّة الحضر، وتعرفت إلى الكثير من أخلاق المدنية وعاداتها، وشهدت مدارس البنات في الإسكندرية، والقاهرة، والآستانة فيما بعد، وناقشتُ المتعلّمات، وحضرتُ مجالس العلماء من أجِلَّة الأزهريين، وكبار السلفيين، وفلاسفة المتصوّفين.

ثم انتقلنا إلى الآستانة، وعرجتُ في طريقي إلى إيطاليا، فشهدت عظمة نابولي، ومدينة روما، ووضعت أنفي في الجوامع، والمعاهد، والأكاديميات، وحفلات الرقص والموسيقى! واختلطتُ بالعلماء في غرف تجاربهم، والخليعين في نواديهم العامة.

وانتهيتُ بعدها إلى الآستانة، فاختلطت بالطبقات المستنيرة، والجاهلة، وتعرفت إلى الأُرستقراطيين والعمال، وقادني حنيني إلى المزارِع والجبال، فسامرت البدويات في مرتفعات الأناضول، والفلاحات في سهول أزمير..

وكنت موضع عناية سيِّدي العجوز، طوال خمس سنوات، أقمتها في الآستانة؛ كما كنت محل رعاية ابنه البكر، الذي كانت تجمعني به حياة متجانسة؛ متفقة العناصر.

ونُعي إليّ خبر وفاة سيدي؛ وأنا في قرية نائية، فكانت مأساة ما نسيتُ ولن أنسى هولها ما حييت. وقفلت عائدة إلى الآستانة، حيث تقدمت بعزائي إلى الأسرة الكريمة وعاهلها الشاب.

وحاولني الشاب على أن أقبل يده كزوجة، لكني كنت قد سئمت الحياة المدنية، وتاقت نفسي إلى قفار الحجاز الهادئة، ولست آملة مهما سما ظرفه، ورقَّت حواشيه، أن يواتيني بالعيش في حدود الفطرة في مثل هذه الأصقاع الحبيبة إلى نفسي.

وهكذا استأنفت عودتي إلى الحجاز فنعي إليّ أول وصولي، خبر وفاة والدي الفقيه، وتفرقت الأسرة بعده في قرى متناثرة في بوادي الطائف؛ فاعتمدت نفسي واتخذت من بعض ما أوصى لي به والدي، سكناً يؤويني.

فإذا نازعني الشوق إلى زيارة بعض أقاربي في القرى بين وديان الطائف، جمعتُ إلى صرَّتي ما أتبلغ به في طريقي، وبدأت مسراي في دروب لا تخفاني مسالكها، وليس بين سكانها مَن يجهل شأني فيها!!

حياة لك أن تقول فيها ما تشاء. إلاّ أن تسميها غير جميلة.. فأنا في متعة روحية دائمة، وليس لذاتي مطلب تعتدّ به أكثر من كسرة أزدردها مع شريحة من الشواء، وفنجان من القهوة، وحسبي من الحياة جولاتي في هذه الطبيعة السافرة، أصعد في هضابها، وأنحدر في أوديتها، وأرود مروجها الخضراء، فأتخذ

مقيلي بين جداولها. حتى إذا ما انحدر ميزان الشمس؛ سرحت إلى عالي السفوحِ.. أرتع فيها كأني إحدى السوائم، وأستجلي جمالها الفاتن الجذاب.

وفي الليالي القمراء أدلف إلى إحدى الروابي العالية، على كتف من أكتاف هذه البوادي، فأمتِّع نفسي بمنظر القمر يلقي ضوءه على حواشي الوديان الخصبة، وتنعكس أشعته الفضية على جداولها، وهي تنساب رقراقة إلى المروجِ المخضلة الجميلة. وأظل على هذا حتى أنتهي إلى القرية التي أقصدها، لألبث بها أياماً.. أستأنف بعدها عودتي على غرار ما ترى!!

(4)

استمع صاحبنا إلى قصتها، مأخوذاً بدقة الوصف، وعذوبة الألفاظ، وجمال التصوير، في روحٍ صافية طغت عليها قوة الأداء والاعتداد بالنفس والثقة بها.

تُرى، أجبَّارٌ من جبابرة الوادي تقمص هذا الصبا الفاتن؟!

أم هول من أهوال الليل المترعة بها أساطير عجائز القرى لبس هذه الحسناء؟

أم هو أمام لغز من ألغاز الحياة العجيبة؟؟

دارت كل هذه الخواطر برأسه، وهي تدلف أمامه متّجهة صوب الكهف، حتى إذا أشرفت برأسها إلى الوادي طرق سمعه صوت ينادي :((فكرة)) وسمعها تجيب الصوت ملبية نداءه كأنها معنية به، فعلم أن اسمها (فكرة) وأن في الوادي مّن يناديها.

فدار في نفسه أن يستكشف سرَّ مَن ينادي عنزته الضالة! وقبل أن يستوي للقيام، كانت تدور على نفسها وتتجه إليه بابتسامة رقيقة، مستأذنة في الانصراف إلى مَن يناديها.

زاد الأمر في نظره غرابة.. إذن، في الوادي مَن يناديها باسمها وتلبيه، وقد بلغ مِن تهذيبها أن تستأذنه في الانصراف. وهذا الاستئذان تُرى ما معناه؟؟

أفي الأمر علاقة موطدة إلى الحد الذي يستدعيه الاستئذان؟ أم هو مجرد عادة لا أكثر اقتضتها تربيتها؟، ثم ما مدى فصالها؟ وهل تنصرف إلى رجعة؟ إن صُرَّتها دليل على ذلك، وإلاّ لماذا تتركها؟!

وأخيراً فما معنى العناية بكل هذا؟، وسواء فصلت إلى رجعة أو إلى غيرها فما علاقته بجميع هذا؟!

سأل نفسه هذا السؤال وأعاده عليها مرات، فلم يجد لديها جواباً.

وشعر أنه في حاجة إلى تنسم الهواء عند مدخل الكهف، فاستوى قائماً، حتى إذا كان عند باب المدخل، أشرف برأسه على الأفق المترامي على مد بصره، تتخلله الأودية الكثيرة تلتوي فيها مروج حادة، وأدواح متشابكة على حفافيها.

ودار ببصره فإذا بشاب مِن رعاة الغنم عن كثب مِن حاشية الوادي القريب، يقف في قطيع مِن الغنم، مترقباً وصول ((فكرة))، ونظر، فإذا ((فكرة)) في انطلاقها، تعدو متجهة صوبه، كأنها على موعد منه.

وأطال النظر فإذا هما يتصافحان، ثم يأخذان الطريق إلى صخرة نائية في إحدى حفافي الوادي، تاركين القطيع يرعى على بُعد منهما!

وطال مقامهما في نجوة مِن السبيل المطروق، فتسللت الأفكار إلى رأسه، وانتابته الوساوس في أمرها، ولم يدرِ بماذا يفسر كل هذه التصرّفات، أيرتاب في أمرها.. وهي مَن عَلِمَ شكيمتها ممّا سمع؟ أم يحمل هذا على البراءة وفلسفتها الخاصة في الحياة؟

وعنَّ له آخر الأمر أن يمضي في اعتبارها بريئة، وأن يتجه بنفسه إلى نجوتهما، كأنه ماضٍ إلى أمر عادي، فإذا قوبل بروحٍ بريئة انتهت وساوسه على نحو مقبول، وإلاّ فقد كوَّن لنفسه رأياً، لا محلَّ فيه للالتواء والتأويل!

(5)

ولم يطل تردده حتى مضى في طريقه يعبر الوادي، وصادفته شجرة مزدهرة، فوقف يتشاغل بقطف بعض زهورها عن كثب منهما، فلم تبدر منهما حركة ولم يغيِّرا مِن وضعهما، ولم يتجه أحدهما بكلمة إليه. فاستأنف سيره حتى انتهى إليهما.. أحسنا استقباله، وقاما إليه فأجلساه بينهما، وسمعها تصل ما انقطع مِن حديثها مع الراعي قائلة:

–هذه عادة ما عرفها العرب، ولم يوصِ بها الإسلام ولكننا نتشبث بشيء مقدس وإن كان بعيداً عن المنطق والعقل، بعيداً عن الدِّين.

قال سالم وهو ينظر إليها مرة وإلى الراعي أخرى، وقد أصبحت براءتها لديه أكثر منها في كل ما مضى:

–أتحاضرين في الاجتماع؟

قالت وقد اتجهت ببصرها نحوه واعتدلت في جلستها لتواجهه:

–نعم إننا في شأن خطوبة أخته. تقدم ليدها –كما يخبرني– رجل مِن منازل الهُدى، ظاهر المكانة، فحاز الرضا والقبول .وعنَّ للرجل في النهاية رأي شاذ في عاداتهم، هو أن يرتحل في جماعة من بني قومه، وينزل بهم كأضياف تعلّة لمشاهدة خطيبته قبل البناء بها، فاعتبروا رأيه شططاً، واقتحاماً لا مبرر له. فما كانت ابنتهم جارية تعرض في سوق النخاسة والبيع!! وليسوا من الضعة بحيث يرى الخطيب ابنتهم قبل بنائها!

هذا شيء يبيحه الدِّين ويقره العقل السليم. يعرض له العرف شامخ الرأس منفوخ الأوداج ليقول كلمته :((لا)) صاخبة مدويّة، فنقول بقوله :((لا)) وننسى ديننا ونلغي عقولنا؟!

نحن في هذه الحياة –يا صاحبي– عبيد العرف والتقليد، ويبيح الدِّين شيئاً أو يوحي به فيستنكره عُرفنا، فنلوي كمَن مسّه خبل، ونصم آذاننا كما لو كان بها وقر. جرياً وراء العرف وتقديساً للتقليد؛ ويستقبح الدِّين أموراً لا يرضى عنها، فننثني وراء التقليد والعُرف كأنه لا يعنينا غيرهما!!

كل الإضافات المترفة في حفلات الزواج في بوادينا وحواضرنا يستقبحها الدين، وينظر إليها نظر السرف المقيت. وأكثر هذه الطقوس التي نقيمها في أكثر المناسبات، ونحن نعرف بُعدها عن العقل والمنطق، نرزح تحت أعبائها مكرهين أو راضين، لأن العرف وشَّاها بشيء مِن التقديس، ولأن التقليد نصب لها مكاناً مِن الأبهة والتبجيل.

ومآتينا اليومية، وشؤوننا، ومصطلحاتنا.. لو كنا نستوحي فيها ديننا وعقولنا، لجئنا على تسعة أعشارها محواً وحذفاً، وعشنا بالقليل متدينين كالرعيل الأول في الإسلام، بسطاء كأول عاقل دبَّ على الأرض.

الدِّينُ يحكم للمرأة على وليِّها أن يأخذ برأيها في خطبتها، ويقر العقل ذلك بوصفها شريكة مقبلة على أهم مشروع في حياتها، فلا يلبث العُرف أن يقحم نفسه، وأن يحل محل الدِّين والعقل، ليقول كلمته عنهما، وينفذ أمره دونهما.

والمرأة في الحضر، لا تصك وجهها في خطيبها الرجل، بل تضرب بسور بينها وبين قريباته من النساء، لئلا يرينها بمناسبة الخطوبة فتعدو جارية في سوق النخاسة والبيع!

كل هذه سفسطة تنافي تعاليم الإسلام، ومنطق العقل، ومع هذا، فنحن نتعسف إرضاءً لها، وننزل على إرادتها وحكمها طائعين.

إن جميع عاداتنا وأخلاقنا موبوءة بالخرافة والتقليد، إن التقليد والخرافة صنوان يجدان مرتعهما خصباً في منابت الغفلة والجهل!!

لنتعلم. لنتعلم يا صاحبي بأبسط الطرق المبسطة التي نُعنى فيها بالعقل، تكيفه وتُهيئه للفهم، أكثر ممّا نُعنى بالمادة والكم نزجيهما ونفخر بهما.

وأسندت رأسها بيدها كمَن يستجم من إرهاق واصب، ثم عادت فرفعت رأسها وتطلّعت إلى الأفق البعيد، وندت عن صوت انتزع من أعماقها :يا رب بهذا حكمت مقاديرك!!

ثم قفزت كلبوَة ضارية. وعدت منطلقة في مسارب الجبل دون إنذار أو وداع.

وتطلَّع سالم إلى الراعي، فإذا هو مشدوه لم يفق بعد من تأثير كلماتها فقال، يسبر غور ما تركت فيه:

–أتراها عاقلة؟

قال الراعي، وقد بدأ ينكت الأرض بجريدته الصغيرة:

–إنه لا ينقص هذه البوادي إلاّ عشرون مِن هذا الصنف المجنون يقلب بنا الأرض، ويأتي على جميع أصنامنا!

وما أتم جملته حتى بدت له واحدة مِن غنماته تترك القطيع مغِذَّة في الحقول، فغدا يجري نحوها مشغولاً بها.

وظل سالم وحده يتطلع إلى مسارب الجبل تصعد فيه الفتاة كأنها تمضي إلى غير غاية، وقد بدت في ساقيها الدقيقتين غزالاً يتوثب بين النتوء والصخور!

(6)

كانت الشمس قد مالت إلى الاستواء، وعكست أشعتها من فوق التلال على المروجِ الخضراء الممتدة بامتداد الوادي، وكنت تسمع رغاء الإِبل، وهي ترزح تحت أحمالها من العنب والسفرجل، آخذة طريق الطائف إلى مكة . وكانت الفتاة عن كثب من صاحبنا ممعنة، في مسارب الجبل لا تلوي على شيء، وكان يعلم أن صُرَّتها وموئل ذخيرتها في غير ما سلكت من السبيل، فإذا استمر تصعيدها، كوتها الشمس بعيداً عن مؤونتها، وفَقَدَ بدوره فيها أنيساً يقضي يومه معها بأمتع ما تُقضى به الأيام الجميلة.!!

وضحك في نفسه لخاطره الأخير.. ثم دار على عقبه، وعاد أدراجه إلى كهفهما بالأمس، فجمع صُرَّتها بما تحوي، واتجه في طريقه إلى الجبل مترسماً خطواتها، حتى انتهى إليها وقد مال قرص الشمس وراء الأثلات البعيدة، فابتدرته مستبشرة متهللة:

–حيهلا بك وشكراً.

–وسُعدى بلقياك، طيِّبة مسرورة، بعد الذي عانيت من نفسك.

قالت :لنمضِ في جمع الحطب، حتى إذا شبَّت نارنا، ونضجت قهوتنا، استأنفنا ما يحلو لك من حديث.

ومضت ساعة كانا في نهايتها قد تبلغا ما استطاعاه مِن طعام، وبدت فناجين القهوة يعقد عليها الدخان سُحُباً شفافة. واتكأ أمامها على صخرة ناتئة يستدرجها للحديث:

–أتحبين؟

–ما تعني؟

–أعني كل ما في هذه الكلمة من معنى!..

–أحب.. أحب الليل في هدوئه الغافي، والقمر تغشاه غمامة شفافة، والأفق المترامي لا يحده البصر.. أحب الجبال الشامخة كأنها تعبر عن كبرياء صامت. والسهول المنبسطة كأنها مطرَّزة بالوشي، والجداول الضافية يترقرق فيها ماء عذب.. أحب البكور تشقشق فيه العصافير المغردة، وأحب الشمس في صحوتها تظللني من سعيرها دوحة فينانة، وأحب الأصيل تنعكس فيه الشمس أشعة ذهبية براقة، أحب كل ما هو طبيعي في الحياة لم تصقله يد محترفة، وكل ما هو صحيح لم تزينه الصناعة المبهرجة.

أحب الرأي مصدره المنطق السليم، والقوة مبعثها الحق، والفضيلة يصدع بها رجل بريء من الشهوة والغرض. أحب في الحياة محمداً صلى الله عليه وسلم.

أحبه لأن أغراضه شريفة ما التوت قط، ولأن سيرته صورة من تعاليمه، وتعاليمه بيضاء نقية لم يُكدّرها إلاّ أهواؤنا.

أحبه لأنه كان قوياً على نفسه، قبل أن يكون على غيره، أحبه لأنه كان صادقاً في سره كما هو في علانيته، أحبه لأنه كان عادلاً بلا ميزة لأصفى أصفيائه، ولا استثناء لأقرب أقربائه.

ليناً من غير ضعف.. رفيقاً دون تكسر.. فقيراً ما لانت قناته لجبار في الأرض.. غنياً ما شبع قط من طعام الدنيا.. عفًّا ما برَّ أهله بشيء من لذاذة الحياة.

قال، وقد اعتدل في جلسته وتوجّه إليها بوجهه:

–أمامي إذن شاعرة تعبد الله!!

–هو ذاك. فأنا شاعرة بهيامي في جمال الطبيعة، متعبدة لافتناني بالمثل الكامل، في حياة محمد صلى الله عليه وسلم. فهل هذا كل ما تريد أن تقول؟

–إنه ما أعنيه بالضبط، ويهمني بعده أن أعرف. ألا تحبين حب أهل الدنيا، وتعبثين عبثهم؟

–لست نبيّة ولا ناسكة! وليس في حياتي ما يصفو من العبث، إلاّ لمحات أصفو فيها لوجداني كما يفعل كل مؤمن.. أما الحب. حب أهل الهوى.. فحب تقليدي ربما عابه كثير من السخف، وقد كنت من غواته. لأني سخيفة أحب نفسي.

قال: وهل الحب يبلغ من السخف القدر الذي تتصورين؟

–قالت: يا هذا أنت مدنف مغرم بقيادي إلى ما يشوّقك، وعلى رغم أنك تراني أجملْته.. تأبى إلاَّ أن أسهب، عساي أرضي ناحية في وجدانك!

–ولكنك لم تجملي شيئاً ممّا تشعرين أني معنيٌّ به من فلسفة الحب.

–لا بد لإيضاح الفكرة من ترتيب منطقي.. هناك الحب الصافي الذي تبرُّ به أهلك وذوي الفضل ممّن تعرف، وهناك حب الجمال في الطبيعة الذي يشوِّقك مجالها من كل لون.. وعلى غير بعيد منك الجمال المشرق في وجه فتاة كاعب يتألق الإشعاع في أهدابها الوطف!!

الحب في صوره الأولى معناه الجمال شائع في كل ما استأنست.!!

والحب في شكله الأخير.. حصر الجمال في حالة بذاتها تستثنيها لنفسك وتقيِّدها بك.. فأنت غاوٍ فيما استثنيت.. ظالم لما استأثرت.

الحب في شكله الأخير غلطة الأجيال والحقوب.. تحدرت إلينا على نحو من المغالاة، كانت القصة والوضع أهم عناصره، وتركت الغلطة أثرها في وعي الأجيال حقبة بعد أخرى، حتى استوى العهد الذي حلَّت فيه الغلطة محل الحب الطبيعي.. فنحن اليوم نحب، بمعنى أنا نضفي الجمال في حيّز ضيق، ونحب بمعنى أننا نشقى بالتوفيق بين أرواح تتنازعها مشارب مختلفة باختلاف الأهواء والأغراض ومنافع الذات.

شكا كثيِّر من عزة، وبكى جميل من بثينة، وجن قيس بليلى في صور لا ندري كم عانى الوُضَّاع والقصصيون فيها، ولكنك تدري أنها كيَّفت الحب في جميع العصور بعدهم، وصاغته في القالب الذي شاءه الوضّاع والقصّاص لقيس وجميل وكثيّر.

ولو كنت قصصياً بارعاً ذا خيال واسع لاستطعت أن تضع للناس قاعدة جديدة للحب في قصة محبوكة، تجعل منها مثالاً للحب في أسلوبه الجديد.

فالحب بمعناه التقليدي –عدا أنه أنانية جامحة، وحب للذات –أرى أنه فكرة سخيفة، تحدَّرت إلينا من أجيال ممعنة في القدم، غذَّاها خيال الرواة والقصصيين. وهو بعد هذا أو قبله؛ إن شئت؛ معرَّض للذل، والنزق، والتجنّي، كما هو إقحام متكلّف للمزج بين قلبين متحابين، وفي كل منهما نزعة متأصلة للاستئثار والأنانية!

بربك ما معنى الشكوى بين الحبيبين؟ ثم ما معنى اللوعة والأسى والبكاء؟ ثم ما معنى الجنون أو الموت؟

أليس ذلك نتيجة إقحام متكلّف على غريزة شخصين!؟

إنه ليس أكثر من أن تقول العادة، ويقول التقليد إنهما تحابّا، أمّا غرائزهما الشخصية، ففي منأى عن ذلك بما رُكِّب فيهما من حيوانية.

إنهما يتحابان اليوم، وينعمان معاً بتأثر هذا المخدر الوجداني، فلا تكاد الأيام تمضي بينهما، حتى تحيطهما بهنائها.. يتخيل أحدهما فيه أنه مغبون، وللخيال شطحات إذا وجدت من يستمرئها، وبدأ الوهم يلوِّن حتى البادرة البريئة ويستكثر القليل تجنبه، فيكفهر الجو بينهما، ولا تلبث سماؤهما أن تتلبد بالغيوم.. لكلٍ كرامته، يجب أن تصان، ولكلٍ ميزته لا يجب أن يهادن في تقديرها.

لا بد في هذا الكون من سيد ليعيش المسود، ولا بد من ضعيف لتستقيم القوة، ولا بد من النفع لتبقى الحياة في الأرض ..!هذه عناصر كونية لا معدى فيها لمرتاب، إذا تحابَّ عاشقان، أو سمت أذواقهما عن كل القواعد، أو صفت من كل المكدرات؛ فلا معدى لهما من تخطي عناصر الكون الأولى.

لا بد لهما من سيد ومسود، ولا بد لهما من ضعف يقابل القوة، ونفع يحفظ التوازن، فكن محباً أو محبوباً لتكون سيداً قوياً نفعياً، أو مسوداً ضعيفاً مسخَّراً.. وفي الأولى ظلم؛ وفي الثانية عذاب وذل!

هذا في عاشقين تبادلا الحب وصفا بينهما الود.. فما ظنك بهما طرفين أحدهما في السحاب والآخر في التراب؟! إنه منقلب وصفه المحب الشاعر عندما قال:

وعش واحداً فالحب راحته عَناً

وأوله سقم وآخره قتل

ونسلوه في ضناه وسقمه، وقد نواسيه بعد قتله، فنترحم عليه (..كان رقيق الحواشي.. مهذباً ظريفاً، خفيف الروح.. تسيل أعطافه عذوبة وجمالاً).

وننسى أنه كان مجموعة أعصاب لا يستخذي لمنطق، ولا يحتكم لعقل، وأنه رحمه الله عاش مجنوناً ومات جباناً!!

ولو كنا –ونحن نذكر للعاشق رقته وعذوبته– لا ننسى غيرته وحقده وأنانيته الجامحة؛ لتفتحت عيوننا على تُرَّهات الحب من هذا النوع، وعافت نفوسنا ما انطوت عليه من رذائل، ولكننا عبيد العادة! وقد انساق الحب إلى وعينا الخفي انسياق آلاف الرذائل غيره.. فنحن عبيد إلى أن تستقل عقولنا، وتخلص ممّا ران عليها من خرافة.. غير آبهين بما دسّ التاريخ في دمائنا من لوثة التقاليد الزائفة!!

تحرر يا صديقي من التقاليد السخيفة، وعد إلى طبيعة الإنسان الأول في الحب، تجد في الآفاق الواسعة متسعاً لهناءتك، وتجد في المتعة بها اللذة الرتيبة لا تعصف بها نزعة، ولا ينازعك فيها هوى ضال جامح.

قالت هذا، وأسندت رأسها إلى الأرض ثم تركت جسمها الرخو يتهالك على نفسه، وأطبقت عينيها وفمها واستسلمت لصمت عميق كأنها تستجم من وكد واصب مرهق.

(7)

كان يمشي وفي خطواته ثقل كمن آذاه عبء فادح، وأقلقته أفكار مبهمة.. وانطلق في مشيته ضيق الخطو مقبوض النفس إلى ربوة مرتفعة يكسوها عشب مخضل، وتمتد على جوانبها فروع خضراء، ثم جلس يواجه فتاته على حافة الربوة حيث تجلس، وأرسل عينيه تجولان في الأفق، وقد ذابت الشمس وراء الأفق، فتكسّرت أضواء الشفق على منحدرات التلال البعيدة، وانعكست أشعته على الغدران المنتشرة بين حنايا الوادي.

وسبحت خواطره، وانطلقت أفكاره فيما آل إليه أمره في مثل هذا المكان المقفر.. ترى أي الصدف ساقته إلى طريق هذه الفاتنة؟ وما شأن أهله بعده وهم يجهلون سُدته، ولا يعرفون طريقه؟ وإذا كان فيهم مَن ألف تغيّبه وهيامه بالتشرد في الآفاق فإن فيهم حديث العهد بهذا الشذوذ.. زوجه الجديدة وأطفاله الصغار، وهم يعدّون عليه ثوانيه، ويرقبون أوبته بعد كل ساعة وأخرى.

ثم ما هذا الشعور المبهم؟ أغبطة هو وسرور بالحال الذي انتهى إليه، والصدفة التي انساق إليها؟ أم استياء وقلق استوليا على نفسه من جرّاء هذا الطارىء الجديد؟

إنه يشعر أنه ليس مطلق الإرادة لينصرف إلى نفسه، ويعود أدراجه إلى بيته، فما مبعث هذا؟

أهو غريزة الفضول المتأصلة فيه ولا أكثر؟.. أم هو عاطفة هادئة وحنو نزيه؟ أهو نزوة حادة من نزوات النفس المريضة، لا يملك نفسه معها، ولا يضبط عنانه فيها؟

أهو غرض شيطاني جامح أضلَّه وأعماه؟

وثارت نفسه لخاطره الأخير، وتمرّدت عليه، فما هو بالحقير للشيطان يجمح به أو يضلُّه أو يعميه.

وعاوده القلق مرة أخرى.. إنه يشعر أنها دخلت في نفسه أكثر ممّا يجب، واحتلَّت من تفكيره أكثر ممّا يسوّغه الفضول في العادة.. وأن العطف والحنو ليس فيهما من يقظة الشعور ورقدة الحس ما يشعر بهما الآن.

إنها إذن نزوة النفس المريضة، ونكسة القلب المبلِّ من علل قديمة.

وبعد.. فما مكاني منها، ونصيبي من دخيلة نفسها؟. إنها ولا ريب مدلَّهة بقوتها وثبات جأشها، ولها من أفلاطونيتها وفلسفتها وكبريائها حصن لا تنفذ منه سهامي، ولا تتسلق إليه أحلامي.. وعجب من نفسه كيف تطرقت هذه الهواجس إلى قلبه الخليّ، وكيف نزل بصديقته إلى مثل هذه الظنون المريبة؟

شعر فجأة بثقل الهواء على رئتيه، واطِّراد أنفاسه اطّراداً غير منتظم، فهبط مِن حافة التل، وأخذ يثب من مكان إلى آخر، يصعد صخرة وينزل وهدة حتى انتهى إلى شاطىء جدول اتخذ مقعده منه، يستنشق النسيم الرفّاف حتى سكن وجيبه وانتظمت أنفاسه.

وعاد طريقه الأول إلى حافة التل، واستوى مكانه يسرح بصره في أشجار الرمان الممتدَّة في أحشاء الوادي، تعرض بينها الكروم، وتلتفُّ خلالها شجيرات السفرجل، تموج تحت أقدامها قيعان لامعة من البرسيم، وعلى حفافي الوادي، وبين أكناف التلال، قامت بضعة منازل، تجلِّلها أدواج ضاربة في أجواز الفضاء، وتلتفُّ في عرصاتها أشجار التين فينانة فيحاء.

كان مأخوذاً بروعة الطبيعة وجمالها الفاتن، وظل على حالته وقتاً لا يدري أنه طال، حتى شارف الفجر.. كان فكره هائماً سابحاً من كثيب في الوادي إلى مرج، ومن غصن شجرة إلى ضفة جدول.. وشعوره مبهماً لا يحد ولا يقدَّر. وكأن قصيدةً حائرة في فم الطبيعة لا موضوع لها ولا عنوان.

وحانت منه التفاتة إلى المكان الذي ترك فيه مضيفته (نابغة الجبل) تستغرق منذ البارحة، فوقع نظره عليها وقد جمعت كفيها النحيلتين تسند بهما رأسها، فانحلَّت عرى ملاءتها عن جيد دقيق، ونضا لثامها عن عينين فاترتين، تحف بهما أهداب وطف، ويقوم بينهما أنف أشم كأنه حارس طويل النجاد مكلف بالعناية بهما.. يعلوه جبين متسع كأنه صفحة من كتاب الحياة، وفم ذابل رقيق متغضن عليه طابع فيلسوف أرهقته الأيام.

وكأنما أحست بروحه الهائمة تصافح وجهها، ففتحت جفنيها وافترَّ ثغرها عن ابتسامة اختلطت معانيها عليه، ثم تحاملت على جسمها الرخص، واستوت قائمة آخذة طريقها إليه، فأسرع يلقاها وقد ذابت معاني الكلمات في فمه، ولم يجد حرفاً يحييها به تحية الصباح، فلم يربكها حياؤه، بل شجَّعها على أن تمد يدها إلى مصافحته، وتبادره في غير ما خجل)) :كيف أصبح أخي؟ ..((ثم تومئ إليه أن يتبعها إلى مجلس البارحة من التل، فما مَلَك إلاّ أن أطاعها في أدب وحشمة، وأن سايرها في خطى متثاقلة مختلجة، كما يساير الطفل أخته الكبرى الوقور.

واستقر بهما الجلوس، ولم تبدر منه بادرة، ولم يفتح له معنى، ورأت هذا في عينيه، وأحسته طاغياً على وجهه فقالت:

–هل تعرف أنني أصبحت اليوم مسرورة راضية النفس، لإِحساس تملّكني وشعور هزّ كياني؟

لقد بدأت أشعر أنني أختك، وكم يزيد سروري أن تعرف، إلى جانب ذلك، أن هذا الإِخاء سوف لا يصدق ولا تقوى آصرته وأوشاجه إلاّ على أساس من الصراحة والصدق.

يقولون: إن أدواءنا في الحياة أكثر من أن يحصيها العد، وإن رزايانا لا تقف عند حد، ويقوم إلى جانب ذلك ألف حكيم ومصلح بتشريع هذه الأدواء والأوضار، ليفرضوا لها من أصناف العلاج ما يملأ أضخم المجلدات، ويرهق تعاطيها أقوى الأمعاء، ومع هذا فنحن كما نحن، لم نتقدم خطوة إلى الشفاء. أمّا أنا فأتحدّى كل إصلاح لا يقوم على أساس من الصدق.. ليتهم تركوا كل أوبائنا ولم يعالجوا فينا غير ناحية واحدة هي الصدق.. إذن لاستقامت منا أمة لا تُظِلُّ الشمس مثلها، ولجاء هذا العقار على كل أمراضنا جملة وتفصيلاً.. لنصدق بعضنا، إن أردنا أن نتمتع بأخوتنا ولو إلى حد، ولنكن أكثر وضوحاً من الشمس عندما تطالعنا من هذه القمم!

كانت تقول وليس في صوتها النبرة الرقيقة، والألفاظ المتكسرة على شفتي فتاة كاعب.. كانت العبارات تتدفق في قوة، كما تتدفق من لسانٍ مفوَّهٍ أَلِف الخَطابة والبيان، وكان جِدُّ الأب، وصرامة الأم تتجلّيان معاً في ملامحها فتبددا أحلام الواهم في ذبولها وجمالها.

وانصرفت من المجلس تركض خارِج التل.. ولم يعد سالم ليجد الفرصة للتعبير عن رد فعله للشعور الجديد الذي فاجأته به ((فكرة)).

(8)

دبت الحياة في مسالك الوادي، وبدأ ثغاء الماشية يختلط برغاء الإبل، وأخذ البدو والفلاحون ينسلون من معارجهم في السفوح القريبة. وسمع مَن ينادي باسمها :((فكرة))، فالتفت فإذا به صاحبها بالأمس يحث أغنامه متجهاً إليها.

وكانت ((فكرة)) في شغل عن ندائه، تلهو في شجيرة من الورد.. تركز أغصانها في عود غرسته بيدها، لتسوِّي فروعها عليه، كما لو كانت تُعنى بشيء يخصها، وصافح النداء أذنيها بعد لأي، فهرعت إليه تستبق خطاها، وانحدر خلفها يدفعه فضول ملحّ في تسنم جديد عنها، فسمعه يبشرها بوصول النفر من أهل خطيب أخته في جماعة من عِلية (الهدى)، وأنهما بعد اتفاقهما على تفصيلات الزواج، عينا ليلة الجمعة المقبلة موعداً لحفلة الزفاف، وأنه آت لِدعوتها ورجائها في أن توافيهم قبل موعد الزفاف بمدة تكفي لمشاركتها الرأي في كل ما يتعلّق بالزفاف.

أنصتت إلى صاحبها الراعي، وفي محيّاها علامات الرضا، وبين شفتيها تنزوي ابتسامة حلوة، ثم زوت ما بين عينيها، كمن يشير إلى ناحية في الموضوع لم تستوف بعد، والتفتت في أدب إلى ناحية الراعي ثم إلى ناحية سالم وقالت:

–أجل.. وسيكون كلانا قبل موعد الزفاف عندكم، ولست أرضى من أخي سالم أن يتأخر عن ليلة الحفل، فنحن أحوج إليه قبل موعده.. وفي سلامة الله يا راجح.

وانصرف راجح الراعي مسروراً بما تضمنه حديثها، فقد أضافت إلى دعوتها شخصاً لم يكن في موضوع الدعوة في أسلوب رشيق ودود.

لم يدرِ سالم أيكبر عليه إقحامه في الدعوة ويستنكفه، ويعترض عليه أم يقبله ويرضاه، ويهنأ به كبادرة من بوادر الحب والولاء والعناية به.

ولم تمهله حتى يستجمع أفكاره، بل أشارت إلى فيء ظليل على حافة جدول ضحضاح، وقالت وهي تضع يدها على كتفه:

–تعال نستفئ ونضع برنامجنا على النحو الذي نراه.

ونسي تردده بين الاستنكاف والقبول، وانساق في صحبتها حتى تخطيا الجدول، واستقرا على حافة تحت أشجار السفرجل.

وقالت وهي تعبث بأناملها الدقيقة في الماء:

–لك يا صديقي زوجة تبيت على مثل نار الغضا انتظاراً لأوبتك، ولك أولاد يستبطئونك ويرقبون عودتك في شغف ولهف، فارجع إليهم وامضِ بينهم ثلاثاً من الأسبوع أو أربعاً، أكون في أثنائها قد سبقتك إلى مكان العرس، وقضيتُ من حقهم عليَّ ما قضيت، إلى أن توافيني ليلة الزفاف؛ فنشترك معاً في ليلة بهجة وسرور حافل.

قالت هذا وهي تربت على كتفه في رقة ولطف، كما تهدهد أم طفلها في دلال وحنوّ، وما ختمت حديثها حتى أشارت بيدها إلى طرف الجادة النازلة في تعرّج إلى فم الوادي، ووضعت يدها في يده تودعه، وتسلمه إلى الطريق.

(9)

كانت المرة الأولى التي شهد نفسه فيها طفلاً بعد أن بلغ مبالغ الرجال.. تربت على كتفه فتاة وتدلله، وتضع له برنامجاً يسير عليه في حدود معينة، ثم رأى نفسه ينساق في الطريق الذي أرادت، وشعر أن نفسه تتضاءل أمامه وتصغر.. ومرَّ بأطفال يعجنون من الطين أقراصاً صغيرة يجففونها في الشمس. وقد وقف فيهم غلام يشير إلى مواضع النشر بين شجيرات الورد والكادي، فراقه عبثهم وهيمنة الغلام عليهم، وبدأ يزن نفسه بمقياسهم، فلم يرَ فارقاً كبيراً بين عبثه وعبثهم.. إلاّ أنهم يهيمن عليهم شخص من لداتهم، بينما تهيمن عليه امرأة من عرض السبالة، لا يعرف من هويتها إلاّ ما تحدثت به، وتربت على كتفه كما تربت الأم على كتف طفلها الغرير!!

وانساقت رجله مع السبالة كأنه لا يعرف لنفسه وجهة معينة، وكانت الشمس ترخي ذؤابتها في ظلال منعشة صفراء على رؤوس الهضاب، وطال به الطريق، وغابت الشمس وراء البيوت الصغيرة المنتشرة على قمة جبل بعيد، فحثَّ سراه في وجهة السابلة؛ يؤانسه رغاء الإِبل المثقلة بأحمالها من السفرجل، والخوخ، ويطربه أزيز صناديق العنب الموسوقة على ظهورها، في نغمة مطّردة خافتة.

وأشرف على الطائف بإشراف ذكاء على سهولها المنبسطة فأخذ سمته إلى داره، وقضى يومه بين زوجته وأولاده. سادر الفكر، ساهم النظر، يتلقى أسئلتهم المتلاحقة في غير وعي، ولا فهم، ويجيب عن بعضها في غير تدبر ولا تحديد، واستطاع أهله بعد المشقة والإِرهاق، أن يعرفوا أنه مسح فيافي واسعة،

وجبالاً شاهقة في غير ما ضالة ولا قصد، وقنعوا بما عرفوا براً بأبيهم، واحتراماً لطيبته المعروفة عندهم بالكرامة والنبل.

وقضى يومين بعدها تنتابه نوبات من الحمّى فيها ما يشبه الذهول. وكان يهذي بكلمات متقطعة، لا يستقيم لها معنى. وفي الفترات القصيرة من الأصيل، كان يعاوده نشاطه، فيتبع نفسه إلى أقرب الضواحي من الطائف، وينتحي ناحية قصية مشرفة من مسيل العقيق، يناجي فيها نفسه بمختلف الأفكار والوساوس. ولقد قال لنفسه ألف مرة :إذا لم يكن كل هذا حبًّا، فأيّ شيء آخر يكون؟! وإذا كان حباً فما معناه؟ وأنا بعل زوج، ووالد أطفال يتقاضونني من العناية والسهر ما لا يتفق مع مثل هذا العبث؟

ثم مَن هو هذا الذي أحب؟ ما هويته، وما مشربه الصحيح في الحياة؟.. إنها لا تعدو أن تكون فتاة حائرة في الحياة، شاذة على أوضاعها، ناشزة عن لذّاتها.

إلامَ يمضي بي هذا الهوى الطائش؟ وإلى أي حيرة تسلمني نفسي الهائمة؟

وعاودته النوبة فعاد إلى هذيانه بها، وحنينه إلى قهوتها اللذيذة ورشاقة حديثها وطلاوته، وجمال أفكارها الناشزة، وعاوده ذكراها بما فيه من صباحة وجه، وخفة روح، فتحرَّق شوقاً إليها، وتمنَّى لو حمله البرق إلى منازلها.

وظلت وساوسه على هذا النحو تتجاذبه بين مد وجذر طيلة ثلاثة أيام كاملة، وفي اليوم الرابع كانت عزيمته قد صحَّتْ على استئناف الارتحال والعودة إلى أرض الميعاد!.. فمهد في بيته لهجرة طويلة الأمد، وغادر الطائف يسوقه شوق ملحّ، وتلهبه عاطفة مشبوبة!!

وصادفته السماء بوابل مدرار، فلم يثنهِ ذلك عن المضي، وسالت الوديان حوله تجرف معها ما تحدر إليها من التلال من أحجار وصخيرات صغيرة، وتعذَّر المرور على حوافي المروج الخضراء، لما غشيها من غثاء السيل، وأقفر الطريق إلاّ من فلاحات انتشرن بين المروج، في أيديهن ما يشبه المعاول يصلحن ما فسد من مجاري المياه، أو يَلُذْن بحائط من حيطان السواقي، أو شجرة من أشجار التين الكبيرة، يتَّقِين المطر، ويرقبن عن كثب مجاري الجداول المنحدرة إلى البساتين.

ولاذت راعية بأغنامها في كهف مرتفع بجوار أحد البساتين، وكان المطر قد زادت شدّته وتعذَّر معه السير، فلم يرَ بداً من الانزواء ولو إلى لحظة مع الأغنام، فحشر نفسه بينها، وحيَّته الراعية بإفراج الطريق له، وإزاحة إحدى مِعْزاتها لإخلاء مكان له.

وانطوى على نفسه يفكر في هذا الطيش الذي ينساق فيه، وهذه الرعونة التي لا يدري مبلغ تقديرها عند ((فكرة)) ، فهي على ما أُوتيت من ذكاء وظرف وتقدير لفهم الأشياء، لم تفطر على الرقة وحساسية العاطفة التي يمكن أن تزن بها إقدامه في سبيلها، وتكبده المشاق سعياً إليها.

وإنه لكذلك، وإذا بصوت رقيق يصافح أذنه آتياً مِن مرج قريب من بطن الوادي.. مَسَّ أُذنه فكأنما مس زِرًّا كهربائياً سرى تياره من أخمصه إلى رأْسه، في رعشة قوية انقض لها واقفاً، ولم يدرك مدى المسافة التي تفصل رأسه عن سقف الكهف، فدق عنقه دقاً عنيفاً، وهوى على الأرض مسجّى يصب الدم من جرح عميق في رأسه!!

(10)

لا يدري كم مضى على غيبوبته وهو مسجّى في أرض الكهف.. ولكن الذي يدريه أنه عندما فتح عينيه ليرى ما حوله لم يجد في الكهف إلاّ بدوية عجوزاً تصلح من ضماد البن في رأسه، وتغسل ما بين عينيه ووجهه بماء فاتر، ففتح فاه ليقول شيئاً أو يسأل عن شيء، فلم يُسعفه النطق، ولم يقوَ لسانه على الحركة، فعلم أنه لا يزال تحت تأثير الصدمة العنيفة، فأطبق عينيه واستسلم لنوم عميق.

ولا يدري كم مضى عليه قبل أن يستفيق ويستعيد نشاطه، ولكنه يدري أنه زاحف على بطنه إلى باب الكهف، أشرفت عيناه على النور، وامتدت أمامه السهول الخضراء، بامتداد الوادي تلمع بين أوراقها قطرات الندى.. وأقبلت عليه البدوية العجوز تحمل في كفها وعاءً نظيفاً طافحاً باللبن الطازج، وقدَّمته إليه في حياء، وهي تستر نصف وجهها بجزء من كمها، فشربه مقدراً لها هذا العطف وهو يقول:

–كم ساعة قضيتها نائماً يا أمّاه؟

–لم تنمْ ساعات يا بني. فقد نمت يوماً وليلة.. أرجو لك بعدها العافية والصحة.

–تعنين أني أويت إلى الكهف أمس؟

–نعم وقد أزحت إحدى معزاتي لراحتك عندما رأيت آثار المطر شديدة عليك. إلاّ أنك لم تستقر طويلاً حتى نفضت نفسك تزمع الخروج، وقبل أن أنبهك إلى سقف الكهف كان قد صدمك فهويت. والحمد لله على عافيتك.

–هو ذاك يا أمّاه.

ولم يسعفه النطق بأكثر من هذا، فكان حقها عليه أن يقدر صنيعها بكلمة طيبة، ومن حقه على نفسه أن يتعرف منها حقيقة الصوت الذي سمعه، فهي أعرف الناس بناحيتها. ولكن الألفاظ ماتت على شفتيه، والمعاني غاصت في فؤاده الفارغ. ولمح العجوز تمضي إلى كوخها في ظل ساق غليظة من أشجار الجميز، فتحامل على نفسه وقام يتبع خطواتها، حتى إذا بلغ من كوخها ما يبلغه الصوت منها، ناداها فبرزت تتبعها صبية صغيرة في يدها قصعة من ثريد، تعلوها قطع اللحم، عطفت بها ناحية ظليلة من شجرة الجميز ونادت:

–تفضل فقد أبطأت عليك، لأن ابنتي الصغيرة لا تجهز حاجتنا بدون معونتي.

قال وهو يأخذ طريقه بين فروع البطيخ المتعانق تحت مواطئ أقدامه:

–لا أحسُّ جوعاً كثيراً، ولكني في حاجة إلى كوب ماء أروي بها ظمْئي، وقدح آخر أغسل به رأسي ووجهي، فالتفتت إلى (سعدة) الصغيرة وقالت: ضعي ما في يديك أمام السيد، ودونك جرّة الماء الصغيرة فاملئيها من الجدول، واحمليها إليه يغسل أطرافه منها. ثم التفتت إليه في وقار وهي تقول:

–لتتفضل بالجلوس، عسى أن تطيب نفسك لطعام البدو. وإلى أن أجهز لك فنجاناً من الشاي تكون ابنتي قد حضرت بجرتها، فأبعث بها

خلف ((فكرة)) .!! وهي من فتياتنا أنصاف الحضر يؤنسك كلامها، ويشجيك حديثها.

يا للدهشة!.. أفي كل مكان (فكرة)؟! هي في قرى شمال الطائف.. وهي في حفلات الرعاة وراء العدوة القصوى من طريق (المعسل).. وهي كذلك في هذه المروج المتصلة بالطائف القريبة منها! هي من بنات هذا الحي!.. وصبايا تلك المنازل.. حيث يقيم الرعاة حفلات عرسهم!! ولا يبعد أن تكون من قريبات وصديقات كل البدو في جميع وديان الحجاز وبواديه!

–ثم ما هذا الأنس الموزع على كل طارق؟ أتوكيل هو من أبيها آدم على ذريته المشرّدين والهاربين وقطّاع الطرق؟ أو شيوعية لا حدود فيها ولا نظام.

ونال ذلك من نفسه وآمله، وحزّ في فؤاده هذا الشيوع والانطلاق.

(11)

وعاد إليه هدوئه بعد لأي، ورأى أن يستدرج الأم العجوز ما أمكنه الاستدراج.. عسى أن يلمّ بطرف ممّا يشغله عن ((فكرة)) ..فاستجمع نفسه وناداها، فبرزت إليه ملفوفة في ثوبها الطويل، مصكوكة الوجه في حياء، فقال:

–غمرني لطفكم ولمَّا تعرفوا بعد شيئاً عني، فكيف لكم لو نزلكم ضيف معروف منكم، نابه في نواحيكم؟؟

قالت: وقد استدارت على عقبها لتوليه جانبها المغطى:

–إنه لا فرق عندنا بين ضيف وضيف، حسبه أنه نزل علينا.. لا نسأله في العادة من أين؟ أو إلى أين؟ أو كيف جاء إلينا؟. حتى نقريه ونكرم وفادته، ونتركه في حل من الحديث عن نفسه بما شاء وقت أن يشاء. أتريدني أن أسألك فيمَ وصلت إلينا وأنت طارق أرضنا عابر سبيلنا؟

إنها دنيئة ما نزلْتُ إليها وأنا بعد صبية ألعب في هذا الوادي.. فكيف بي وأنا في مثل هذا السن؟!

–ولكنكم تكلون مؤانسة ضيوفكم إلى إنسان أو إنسانة خص أو خصَّت بذلك مبالغة في التكريم، أو عادة جرى عليها هذا الحي عندكم.

–إنها إلى التكريم أقرب، وإن الفتاة ((فكرة)) وإن لم تكن من حيِّنا، ولكنها حبيبة صادقة، جوَّابة آفاق، لا ينقطع سيرها بين هذه الأصقاع، ولا يفتر لسانها عن الحديث الكثير الجميل. وهي، على كونها فتاة لم تبلغ مبالغ النساء، يستوي عندها الرجل والمرأة، لا تبالي بجيش من الرجال، تقحم نفسها فيه.. لتتحدث وتتحدث قط.

–إنها تتحدّث عن الله، وعن الرسول، كما تتحدث عن سير الأولين وتاريخ الآخرين. تتحدث في جميع العلوم لا تستثني شيئاً منها، بكلام يسر رجالنا حيناً، ويبغضهم أحياناً كثيرة، ولا يرضي قط نساءنا، فهي أبداً ناصحة واعظة شديدة القول، صارمة الحجة قوية البأس.

–ولكنك تذكرين أنها فتاة. والعرب لا تزكي فتاة تجوب الآفاق، وتقحم نفسها في أوساط الرجال، وأظنك ككل عربي من أمتك، تنكرين عليها مثل هذا الطيش، وتحتسبينه ضدها منقصة لا يغطيها ثياب الوعظ!!

–أبرأ إلى الله ممّا ظننت وما يظنه الكثير معك. إني لا أنكر هذا التقحم فقط، بل أمقته أشد المقت. ولكنها عالمة، يا سيدي، بكل أنواع الحلال والحرام، مجنونة بعلمها إلى حد يهابها فيه أقوى الرجال! ولقد تعرض لها كثير من فتيان القرى فكانت تجابههم بأشد القول، ولا تكتم ما يدور بينها وبينهم.. ترويه في كل مناسبة، وفي كل مجلس واضحاً بأسمائهم. وسوَّلت للبعض نفوسهم في أن يطارحها الغزل الرخيص، أو الألفاظ المبتذلة، فكانت تحمل كل ما يدور بينهم وبينها على محمل واضح جريء، وتنقله بأمانة إلى أول رجل تلقاه، أو امرأة تقابلها بشيء من التهكم اللاذع، والسخرية الفاضحة، فكان الفتيان والرجال على السواء يخشون جرأتها في النقل، ويخافون تعريضها بكل ما ترى أو تسمع. لهذا لا تجدني أتردد في تزكيتها. ولا عبرة عندي بما يتمشدق به رجل رخيص، أو امرأة جاهلة.

–إذن في البيداء مَن يتمشدق بها، ويلوي لسانه بسيرتها!

–لا يسلم الشرف الرفيع، مهما علت ذروته، من أذى الناس؛ ومثل هذه الفتاة في تهورها وخفتها وإقحامها نفسها في كل ما يسأل عنه الرجال –حتى من شؤون سوآتهم– عرضة لأصحاب الفتك. وإنك لتخالها وأنت تسمعها تهرف في كل ما يكون بين الرجل والمرأة مستوراً بالعادة، لا تستثني شيئاً منه أمام سائل. تخالها وأنت تسمعها كذلك.. إنها إحدى الخليعات، تتهتك فيما يلذ لها ويحلو. ولكنه جنون العلم فيما أعتقد.. إذاً كنتم تعرفون أن في العلم جنوناً!!

(12)

وما انتهت العجوز عند هذا الحد من حديثها، حتى كان قد سرى عنه أكثر ما يجد من لوعة الشك، وما داخله من حسنائه الجميلة.

ولم يلبث إلاّ قليلاً حتى عاودته الوساوس من جديد في شأنها، وراح يحاسب خيالها على هذا الشيوع والانطلاق، ويلصق به وبها شيئاً من معاني الرخص والابتذال، وودَّ لو استطاع أن يقف بها عند حد من الحشمة والاتزان. وأوغلت به وساوسه إلى نقطة بعيدة من الظن والإثم. فهي إنسانة كاذبة إلى جانب علمها ووعظها!

والعالم الواعظ إذا جربت عليه كذبة واحدة كانت مظنة الزيف وشبهة الخداع ..وقد تركها يوم أن أسلمته الطريق إلى بيته تصعَّد في شمال الوادي إلى منازل الرعاة لحضور احتفال زفافهم، فما بالها اليوم تبيت في قيعان الجنوب.. لا يبعد أنه خداع المزيفين من الكهان، وزيف المخادعين من أصحاب الوعظ والإرشاد.. لا يبعد أن تكون على وعد من حبيب مختار تسترق إليه الخطى، وتختلس الأوقات لزيارته!

وعاودته ذكرى كبريائها مرة أخرى، وفلسفتها العريضة في الحب، فاستنكر على نفسه هذه الوساوس، وعاد يتلمس لها شتى المعاذير والأسباب.

ولاحت منه التفاتة نحو الساقية، فإذا ((فكرة)) تشرف عليه من وراء حائطها في قوامها الغض، وثوبها الفضفاض، وعينيها المتوقدتين حماساً وذكاءً، فلم يملك أن وقف يحييها ويبسط شيئاً من الحشيش الجاف لجلوسها، فتهالكت عليه في شبه إعياء، بعد أن حيَّته وعطفت على عشة العجوز تلقي إليها بالسلام.

وندت منه زفرة مكتومة، فالتفتت إليه وقد أدركها شيء من القلق، ورأت نفسها تسأله في حنان ورفق:

–أتتألم؟

.. –لا أتألم.. ولكني أفكر.

–فيمَ تفكر؟

–إنهم هنا يتهمونك بالجنون.. وقد تراءى لي أن ألتمس أدلتهم في تصرفاتك؟

–ألديك فكرة صحيحة عن حقيقة الجنون؟

–أبداً فالمسألة لا أكثر من عُرْف تواضع عليه الناس، هناك تصرفات شذت على قواعد الحياة، فدلَّت على خلط، أو دخل في القوى العاقلة، عرفها الناس فيما بعد بالجنون.

–أتعني أن الحياة سنَّت لنفسها قواعد؟ أم أن شيئاً آخر غير الحياة سنَّ لها ذلك؟

–ليست الحياة عاقلة فتنتظم لنفسها، وإنما هم أبناء الحياة.

–أو إن شئت صفوتها منهم، تواطأوا على تنظيم الحياة ضمن حدود لا يخرج عليها إلاّ شاذ أو مدخول، وبالاختصار.. مجنون.

–أنت –خطأً– تزكي كل ما تواطأ عليه الناس!

–ألم أقل هذا؟!

–أتقول إنه إذا تواطأ الناس على ما يسمّونه بالجنون، فأنت تخالفهم؟

–ألم أقل هذا؟!!

–أرجو تحديد ما تقول.

–ما تواطأ عليه الناس يحتمل الخطأ والصواب.

–وأنت شخصياً تحكم بما يحتمل الصواب والخطأ.

–ألم أقل هذا؟

–أرجو تحديد ما تقول.

–لا أريد أن أحدد شيئاً، ولا أن أقول شيئاً.

–وتريد أن تسمع؟

–سأسمع.. وذلك شأني كلّما جلست إليك.

–إذا وضع (الحكيم العاقل) نواة قاعدة في الحياة، فالمفروض أن تستوحي حكمته. فما هي حكمته هذه؟ إنها قواه العقلية متأثرة بمجموعة كبيرة من عوامل محيطه، فعبّاد البقر، والبوذيون، وهمج إفريقيا.. فيهم حكماء يشرِّعون لأممهم قواعد في الحياة يستوحون فيها حكمتهم وقواهم العقلية المتأثرة بالكثير من سخافات محيطهم.. ومع هذا فهي قواعد.. وهي سنن في الحياة.. وهي نظم لها رعايتها، فإذا كنت فيهم فهل من رأيك الخروج عليهم فيها.. أم متابعتهم عليها؟

إن كنت الأول فأنت مارق خارج مجنون، وإن كنت الثاني فأنت مدسوس على نفسك، مغبون لغيرك!..

في الهند جماعة يذبحون البقرة، وآخرون يقفون مذهولين يسأل بعضهم بعضاً: ما يمنع الجبال أن تميد، والأرض أن تبيد، بهذا النفر الطاغي يطعن آلهتهم، ويطعمها أهله وأولاده؟!

هذان خصمان عاشا في بلد واحد، ونهلا العلم والجهل من معين واحد، وأترِع كل جانب منهما بالحكماء المشرّعين والعقلاء.. فما منع الحكمة أن تجمعهما والعقل أن يستصفي الخلاف بينهما؟.

لا شيء سوى أن العاقل لا يستوحي حكمته خالصة، ولا يضع قاعدته في الحياة إلاّ متأثرة بالعوامل الفعّالة في محيطه، ولو لم يكن هذا لكان أبناء الحياة على غير هذا النحو :(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)[المائدة: 48].

إنني لا أزكّي نفسي فأدعّي أنني إذا كنت مجنونة فلأني أحدهما.. لا أزكيها لأني إذا كنت أعقِل بعض الأشياء، وأجدِّف على بعض القواعد، فإِني لا أزال، رغم ذلك، متأثرة بأكثر مِن عوامل أحاطت تربيتي ونشأتي .وهاأنت ذا تراني مثلك! إلى حد ما ((عبدة)) لكثير ممّا أحاط بي وينكره عقلي.

أريد أن أخلص من كل هذا.. إلى أن قواعدنا في الحياة ليست صواباً كلها، لأن واضعي نواتها كانوا لا يستوحون حكمتهم فيها مجردة من أدران محيطهم، وأن الخروج عليها ليس خطأ كله ولا جنوناً كله.. فإِذا رأيتني في نظر غيرك مجنونة، فكن أثبت من أن تجاري التيار، واخلُص مرة واحدة من مؤثراتك المحيطة، لتستطيع أن تراني على حقيقتي بعينك المجردة، وتحكم في شأني بغير عقلك المشوب.

(13)

كانت الشمس قد أوفت على الاستواء، ترسل أشعتها من خلال الغمائم المتكاثفة فاترة هزيلة؛ وكانت رؤوس الجبال على جنبات الوادي تبدو حالكة السواد، طاعنة في الفضاء بقرونها في خيلاء وزهو.

وكنت ترى في زاوية من الأفق، من ناحية الشرق، بقعاً أرجوانية تلمع في صفحة السماء.. كأنها بحيرات صغيرة تصطفق فيها أمواج من الدم.

وكان الدخان الساطع من المنازل الريفية المتناثرة فوق النجود الصغيرة المجللة بأشجار التوت والأثل، يتلوّى قبل أن يسامت رؤوس الجبال، وتنعقد حواشيه في غمائم رقيقة شفافة، وكانت النغاري تثب وتنتقل مغردة في ثنايا الوادي بين شطآن وخلجان تتعرج، وتندغم، وتنبسط، تكتنفها عرائش العنب وأشجار الرمان والخوخ، بينما تنحدر أمواج من السيل في أخاديد كأنها الشلالات، ثم تعرج وتلتوي بين الغياض والبساتين والمروج المخضلة.

وكان سالم ينصت في إطراقة المأخوذ بروعة حديثها، ويقدم لها كوباً من اللبن الطازج الذي أعدَّته لهما العجوز.

قال وقد اعتدل في جلسته:

–إنَّكِ أوفيتِ البحث ولم تتركي فيه منفذاً لمعترض.

–أبداً.. فالبحث في مكانه لم أستوفِ إلاّ جانباً فيه، وثمة جانب آخر أحق من سابقه بالتفنيد والشرح.. إن ما أسلفته لك مصبوباً جميعه على قواعد سنّها للحياة عقلاء كانت كل أخطائهم لا تتجاوز أنهم متأثرون بعوامل محيطهم، ولكن ما رأيك في طغمة من أصحاب الرأي الفطير، والفكرة الفاشلة تناولوا

الحياة بحكم منازلهم فيها من الجاه أو السلطة أو الثراء. فأوسعوها سنناً وقواعد، وخلقوا لنا فيها أرتالاً من النظم والفروض، تغطي آلاف المرات على ما وضعت الحكمة وسن العقل!!

بكل هذه الأرتال انتظمت الحياة، وأصبحت بمرور الحقوب والأجيال قواعد لها حكمها، ولها قداستها وحرمتها، رغم ما فيها من آراء خطيرة.. أصبحت، بحكم انتظامها في الحياة حقباً طويلة وأجيالاً عدة، نظماً في الحياة وقواعد ثابتة لها، وأصبح الخروج عليها كفراً ومروقاً وجنوناً.

–وما شأن الطغام من هذا النوع بالتشريع يقتحمونه؟

–إنه شأن الناس قبل أن يكون شأن هذه الطغمة منهم.. فالناس في كل زمان جُبلوا على تقدير خاصتهم من أصحاب الجاه والحياة لضعفهم عند أصحاب القوة، فالتمسوا لذلك شتّى وسائل الإغراء والتزلّف، فتركوا مثل هذه المخلوقات تنسى لمجرد سموِّها، وعلو كعبها، عن مستوى الأرض من أنها محاطة بالزيف والكذب وجعلوها تنسى مواهبها، وتلغي عقولها، وتمضي في شططها مطلقة العنان، مقدسة في كل ما ترى، عظيمة في كل ما تشير، نزيهة في كل ما تنطق.

وأغراها التقديس والتعظيم والتنزيه، فأمعنت في الغلو بنفسها، واستغنت عن وظيفة العقل فيها.. فشلَّت حركته، وعطَّلت نشاطه، وانساقت وراء الهوى.. تقتحم صفوف الفلاسفة، وتضرب في بيداء المتكلمين.. تلفظ الكلمة ليرتفع لها ألف صوت، وتقول الرأي فتعنو لها ألوف الجباه.. كلها تأمين وإجلال وتعظيم.

وتواتي الحياة بعض من تواتيه، وتقلب ظهر المجن لمن تقلبه منهم. فيعفي التاريخ ما أعفته الحياة، ويواتي من واتته، فيرهف أقلامه ويشرع صحائفه مفعمة بالكذب، طافحة بالبهتان ويأتي المحررون على أعقابهم ليختاروا لنا من آدابهم (جواهر) كاذبة، ومن عبثهم فلسفة فاشلة، ومن آرائهم الفطيرة قواعد ثابتة، لا تلبث أن تنتظمها الحياة وتحتضنها الأجيال، فتمسح عليها من قداستها، ويتوارثها الأحفاد كما يتوارثون كل مقدّس لا يخرج عليه إلاّ مارق أو مجنون!!

–لشد ما تتجنين على التاريخ!

–في سبيل الشيطان.. ألوف المجلدات ممّا زوَّر التاريخ وزيَّف، بجانب القليل الذي كان أميناً في نقله، نزيهاً في سرده.

–تُرى ماذا كان يفعل التاريخ (بهتْلر) لو أن الحياة شايعته يوماً واحداً على أبواب العلمين؟ وتركت جيوشه تمضي في فتوحها إلى نهاية الحرب؟ أتظن صفحة واحدة ممّا تخرجه مطابع أوروبا كانت تكون خالية من ذكره، والثناء عليه بشتّى النعوت والألقاب؟؟

مع هذا فليس هو اليوم أكثر من مجموعة مثالب، سيظل التاريخ يتلكأ في ترديدها، حتى يغمرها النسيان فيطويها كما تطوي اللجة أقذار الشاطىء!!

–هو ذاك. ولست على هذا القياس بمجنونة ولكن..

–ولكن تريد أن لا يتشعّب الحديث، وأن لا يخرج عن غَرضك. وعندي صبابة في البحث لم أتلمظها بعد. رأيت العظمة والتأليه في بعض بلاد الأمبراطوريات يأخذ أشكالاً.. يكفي لتعطيل ملكة عقلك بصفتك إنساناً أن تنحدر من بيت مجيد هناك. يحتضنك الدلال وأنت في مهدك طفل غرير، فلم

تبدُ منك صرخة حتى تجف الأفئدة، وتهلع القلوب، وتجثو حولك الرؤوس عانية خاشعة. وتدرج بك الأيام، فتدلج إلى حديقة المنزل تشارك حاشيتك من صغار الفلاحين وخدم البيت لعبهم، فيشعرونك أنهم سوائم أعدت لإزجاء فراغك على ظهورهم إن شئت، أو أعناقهم، فيدخل في روعك أنهم من غير طينتك وأنك من غير هذا النوع.

وتلاحقك الأيام فتلحقها وأنت على جلد نمر في عربتك الجديدة، آخذاً طريقك إلى ما سمّاه الناس ((مدرسة))، وسمّيتها أنت مملكة جديدة، بعد مملكة البيت، تعنو لمجدك، وتحنو على رغباتك.

وسط هذا الدَّل، وبين هذه الغفلة والانحلال التربوي. تقضي سني دراستك، فتمضي المدرسة بنظمها وتعليمها وما توجهه وتغرسه في ناشئتها. تمضي كلها في وادٍ؛ وتمضي أنت ودلّك وانحلالك في وادٍ آخر غير واديها، وتتخرج فيها وأنت أكثر غفلة ممّا دخلت، وأشد انحلالاً في تربيتك وأخلاقك وجهازك العصبي ممّا كنت. تخرج منها لتتسلم مقاليد وجاهتك، وصكوك أملاك آبائك، وتتقبل تهاني المزيفين، وكذب المخادعين من حاشيتك وأتباعك وعُبّاد جاهك وأموالك، فلا تدري أصفقتك خاسرة بما تدفعه مِن عقلك ومآلك ثمناً لما يحوط من خداع؟ ولكن الذي أدريه أنا ويدريه كل عاقل يومها في غير هذه الطبقة، أن الخسارة خسارة البلاد بما فقدته من حصافة أبنائها، ورشدهم وأموالهم، وأن الربح ربح الأجنبي الواقف عن كثب يرقب الأمور، ليضع آخر مسمار في نعش الأمة والدولة. ولقد كان!

كان ذلك يا صاحبي.. فقد جاء يوم كانت فيه رؤوس الدولة من هذه الأعصاب المحلولة. عنت البلاد لها، ووضعت مقدراتها بين يديها، فعمدت إلى شهواتها تشبعها من معين ظنته لا ينضب، وإلى رعونتها تدق بها كل عنق مفكر، وإلى طيشها توزعه أوامر (همايونية) على الشعب لا ترعى فيها عدلاً ولا مساواة وتقرِّب به كل ختّال كفور.

وحالت الخديعة، وحال الرياء دون استجلاء الموقف على حقيقته قبل فوات الأوان. اضطلع بذلك نفر من عبيد الأموال أخذوا على عاتقهم تلبيس الباطل وتزيينه وإبرازه حقاً صراحاً، وصارت الأقلام تؤيد النفاق، وتابعها الشعراء والأدباء كلهم يؤيدون المصلحة الخاصة ويشايعون المال. وجاء التاريخ فسن سننهم وترسم خطواتهم، فالتبس الأمر على أصحاب الأمر، وغدوا على شهواتهم يصبحون، وفي رعونتهم وطيشهم يعمهون!!

وكتب تركي يومها في صحيفة نمسوية ينعى هذه الغفلة، ويجدف على ترفيه أصحابها ويسأل :((أليس الأخلق بحبيسي قصورهم العالية أن يتركوا الأقلام غير المأجورة أن تصر بما تشاء، إلى جانب المأجورة توسيعاً وتنفيساً للصدور؟؟)).

إنهم إن فعلوا ذلك أعانوا أنفسهم في محابسهم، وهيأوا لها جواً طلقاً يتنسمون فيه ما طاب لرئاتهم أو صدورهم أن تتنسم، وتكشفت أجواء قد يطيب لهم جدتها وطراءتها وليس ذلك بضارهم شيئاً إلاّ بإذن الله.

فآل أمره إلى شبه محاكم التفتيش، فحكمت عليهم قبل أن تحكم لهم. لأنها أدانته فأسكتتْه نهائياً، وأرضتهم فأفتنتهم في دينهم ودنياهم.

ولم يربح في الحالين إلاّ عدوٌّ يترصد الباسفور. مهيئاً دواليبه لتطحن البلاد في أول فرصة مناسبة من الحدود إلى الحدود. وقد فعل.

–وتطحنينني أنتِ كأنني عدو قاهر، ولم أكن طائشاً في حياتي أو أرعن!!

–ولكن، ربما كنت مجنونة!.. ما أظنك إلاّ أن تبحث عن أدلة جنوني من تصرفاتي.. إن كنت كذلك.. فأنت تتعرض لما يتعرض له كل عاقل وقع في شراك مجنون!

(14)

قال وقد سرَّه أن ينحو الحديث بينهما هذا النحو الرمزي:

–يعجبني أنك تتغلغلين في نفسي، كما يعجبني هذا التلميح بالوقوع في الأشراك.

–ولكنه لا يعجبني. أن أنشر وتطوي، وأن أستقيم وتلوي.

–وأن يعجبك أن أكون مكشوفاً؟ وأن لا أستحيي.

–هو خير عندي من الالتواء والغمز!!

–ولكن.. ولكني لا أجرؤ.

–أأنتَ تخافني؟

–أخافكِ. هذا الإِشعاع الذي تتألق به أهدابكِ الوطف فوق أجفانك الفاترة، يترك أثره السحري في نفسي، ليته كان سحراً ممّا تعوَّد الناس في بيوت الشعوذة والباطل.. إذن لصمدتُ له بما أوتيت من قوة الثبات، وصدق العزيمة، ولكنه سحر من نوع آخر ينقل النفس من عالم المادة والحقيقة إلى عالم تفقد فيه النفس مواهبها من القوة واليقين.. فأنا إذا كنت أشخص أمامك بما تظنينه حقيقتي المادية، فليس فيما تظنين أكثر مِن وهْم.. لأن حقيقتي تبخَّرت في أول سيال شعّ من أجفانك الدعج في أول يوم قابلتِني.

قال هذا ثم انطرح على نفسه كمن يستريح من هم ثقيل آده زمناً طويلاً فرقَّه عن نفسه بإلقائه عنه.. فما زادت على أن رنت إليه بلحظ ساهم، ونظرات حائرة!!

وانطبعت آثار الجهامة على جبينها العالي، والذبول على زوايا شفتيها الدقيقتين، وخدها الأسجح الجميل. ثم حجبت وجهها بطرف ردائها وندت منها آهة طويلة عميقة. ولم تجب!!

(15)

كانا على مرتفع من طريق السابلة، تحجبهما شجرة الأثل الكبيرة عن عيون المارة من رعاة الغنم والفلاحين. كانت ((فكرة)) مرتفقة جذع الأثلة، وجديلة من شعرها تغطي جبهتها، ثم تمضي في هون حتى تلامس ثغرها، تستقر أطرافها بين ثنايا كأنها الصَّدَف اللامع، كأن فرعاً من الأثل يصارع شعاعاً خافتاً على وجهها الضامر وملامحها السقيمة. وكان هو على خطوات منها واجف القلب، مبلبل الخاطر، لا يدري أية نزوة من نزوات القلب جمحت به إلى هذا العبث، وأي مرض من أمراض النفس قاده إلى هذا النزق!!

استبدّت به الهواجس، وانثالت عليه الأفكار سوداء قاتمة. ما باله يعني نفسه بهذه الشواغل المبتسرة؟؟ وما باله يغزو هناءته وخلو باله بهذه الهموم التي نفض يده منها، وسئمتها نفسه؟

بدأ يشعر من جديد أنه على شفا هاوية تجذبه إلى قاعها، قوة ليس في قدرته مقاومتها، وأنه يرسب في بحيرة من بحيرات الدم التي شهدها تلمع في صفحة السماء، وتصطفق أمواجها.. إلاّ أنها بحيرة ليس لها ساحل يتركه، أو مرفأ ينتهي إليه.

جالت هذه الأفكار في رأسهن، وشعر أن الجبال الشماء والوادي وقطعان الماشية، تشاركه هذا الشعور، وتشاطره الأسى في سكون وصمت رهيبين.

ونظر إلى فتاته.. فإذا إشراقة من الخجل، تطغى على وجهها، ورعدة خفية تمشي في أوصالها، ورآها تجمع رجليها تحت دثارها، وتعتدل في جلستها حين تواجهه، ثم تشخص إليه بعين لا تطرف وتعود إلى صمتها.

ما حاجته الآن إلى كلامها وفي انحلال هذه المسكينة، وانكفاء لونها، وما يبدو في ملامحها من آثار الذبول ما يدل جميعه على مبلغ ما تعانيه من آلام نفسية، كان هو وحده سببها؟؟

ما حاجته إلى الكلام؟.. وهذه آهاتها وما يعلو ويهبط من أنفاسها، يترجم بأصدق بيان، ويشرح بأوضح ما يمكن الشرح عن الأفكار القوية التي تضغط عليها، وتعذِّب وجدانها!

طال بينهما الصمت وعيناهما لا تطرفان عن الشخوص إلى بعضهما، ثم صعدت من أنفاسها زفرة عميقة تورَّدت لها وجنتاها، وقالت في صوت متهدّج:

أعرفُ من أمرك وحالك أكثر ممّا أردت أن تعرّفني به، إن صدقاً أو كذباً، كما أنك لا تعرف مني إلاّ أنني فتاة في ميعة صباها، فتنتك فيها طبيعة الارتجال المتأصلة في كثير من الرجال .فأنا إن فتنتك اليوم.. فذلك لأن في كثير من الرجال طبيعة الاستعداد للفتنة بأول ما يصادفهم في الفتاة من صباها، أو رواها، أو مسحة من الجمال قد تكون خداعة فيها.

وأنا من طبيعتي أكره الارتجال في كل شيء.. فإذا رأيتك اليوم ترتجل الهيام لنفسك ارتجالاً، وتندفع معه اندفاع من تغريه السطحيات، فلا آمن أن يتغير رأيي في رجولتك ونضجك!!

أية هوّة عميقة تدفع بنفسك إليها، وتريدني أن أندفع معك فيها؟! إلاّ أنني أدري أنني إن طاوعتك فستجد نفسك بعد لأيٍ عند سراب خداع.. في بقيعة يحسبه الظمآن ماءً.. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً!

ترفّق بنفسك، ولا تضف على فتاتك هذه المغريات البرّاقة، فإنك لا تدري مقدار ألمك يوم ينكشف ما أضفيت من مغريات من حقيقة مُرّة لا يستسيغها مزاجك، ولا يستمرؤها مذاقك!

أنا يا أخي فتاة ليس لها عقل من تعرف من الرجال والنساء!. أعيش في أفكاري وميولي الخاصة في عزلة تامة من الناس، هانئة بهذه العزلة، سعيدة بهذه الأفكار والميول. ينعتونني بالشذوذ مرّة، والجنون أخرى، فأتقبّل نعوتهم بنفس راضية؛ لأن السعادة والرضا يتركزان في ذهنك، وتؤمن بهما أحاسيسك قبل أن تتولاهما التعاريف وتحددهما مصطلحات الناس.

قالت هذا، ثم شخصت ببصرها إليه في قلق واضح تستطلع ملامحه وما ترك حديثها من أثر. ثم نكّست رأسها، وأطرقت ملياً. ثم عادت فرفعته مشيرة إلى سالم بالمسير. فقام يتبعها بعد أن ألقى على العجوز تحية الوداع، وشكرها في كلمات مضطربة!!

(16)

مضيا في طريق معبّد، ينحدر إلى وهدة مطمئنة على شاطئ الوادي، ثم صعدا ربوة تجلّلها أشجار الطلح اليابسة، أشرفا من ذروتها على وادٍ ضيّق، يتلوى في أحشاء السهل المخضل، ثم يلتوي فتحتضنه التلال، ثم يندغم في مهابط وخلجان بين الجبال تعرش على ضفافها الكروم، وتتشابك أدراج الخرنوب والكافور، ثم يستقيم ويستوي حتى ينمحي في مدى البصر من الأفق البعيد.

وانحدر بهما الطريق من ذروة الربوة، إلى صخرة عريضة نائية قامت في زاوية من جانبها الغربي دار مهدَّمة تدل آثار بنائها القوي على عظمة شبابها، وأنها أحد منازل الأمراء من القبائل التي كانت الأيام تدين لهم في هذه الأصقاع بالعز والمجد.. بينما كان ظل المساء يسترق خطاه في هون وسعة، وينشر دثاره على سلسلة الهضاب ورؤوس الأشجار، فتبدو الوهاد والصخور وحواشي الوادي ساكنة جامدة، كأنها تشاركهم الأسى والجمود بعد الطلاقة والإِمتاع.

وأخذا الطريق إلى الدار المهدَّمة، فألفيا لها باباً يفتح على ما يشبه الصالة.. على جوانبها غرف لم يُبقِ الزمان من سقوفها وحيطانها إلاّ على ما يدل عليها، أمّا الصالة فظل سقفها وحيطانها ونافذتان فيها محتفظة بقوتها، كأنها أرادت أن تكون أمناً لكل عابر ساقه الطريق المقفر أو البرد القارص إليها.

ومضت ((فكرة)) تجوس خلال الغرفة، وتتفقد زواياها وأركانها كما لو كانت لها بها صلة سابقة، ثم التفتت إليه في صوت أذواه الأسى وقالت:

–هنا يحسن مبيتنا.. إذا وقفنا على عشاء وقهوة!

سكت ولم يبدر منه حرف، وتركها تسمع نفسها. فدارت على عقبها، ثم اتجهت إلى النافذة وصاحت: يا سليم.. ولم يطل نداؤها كثيراً، حتى دخل عليها أسود عريض المناكب يلبي النداء في وقار وفرح فقالت:

–امضِ إلى (ابن الشيخ) فأخبره أن ((فكرة)) في القصر الليلة، وأنها تدعوك إلى العَشاء والقهوة، فانحنى الأسود طائعاً وانفتل يعدو هابطاً بين الصخور كمن يستخفه فرح طارىء.

اشتد العجب بسالم، وهاله أن تدعو (ابن الشيخ) إلى العَشاء والقهوة؛ في وقت لا تملك فيه كسرة تتبلغها.. ولاحت منها التفاتة إلى وجهه المكفهر، فقرأت في ملامحه ما دار في نفسه، وعلمت أنه لا يريد أن يبادرها في شيء اشمئزازاً من جفوتها، فعطفت في ود ظاهر، وحنان مرموق إلى ناحيته وهي تقول:

–إن ((فكرة)) أختك لا تسيء التصرّف، فتدعو إلى عَشاء دون أن يكون لها مائدة.. إن مائدتي في بيت (ابن الشيخ) تطالعني بما يلذ وأشتهي، فاطمئن إليَّ، ولا يُساورك شيء ممّا يسوؤك!

وسبقته الكلمات رغم صموده دونها، وخلوده إلى الصمت فانفرجت شفتاه على حرد وقال:

–أتعنين أننا سوائم، نفرض نفوسنا على كل مرج معشب!

–ولا هذا.. فهي مائدتي. وعندما أقول مائدتي، أعني ذلك بكل حروفه. فإن لي في هذا الوادي نصف بستان مِن أخصب ما يزرِع الوادي، ولي قطيع من الماشية استثمرته من نصيبي في غلة البستان، وليس (ابن الشيخ) إلاّ قائم على مالي بتوكيل خاص مني، يغلّه ويستثمره، لقاء جُعل خاص.. فعندما أدعوه

إلى العَشاء، أدعوه على خروف حنيذ، ليس له فيه إلاّ ما يبذله بناته في طهيه وإعداده، وستكون الليلة إلى جانبه في ضيافتي؛ موفور الكرامة، عزيز الجانب بعد الذي ظننت من جفوتي قبل الأصيل!

وإذا شاقك استئناف الحديث عن السحر الذي فقدت فيه ثباتك، وفقدت صدق عزيمتك، فسأستأنفه معك بما يروقك، على أن لا يخاطبني فيك إلاّ عقلك الناضج، ومنطقك السليم. أمّا عواطفك، وأمّا شاعريتك، وأمّا مَواطن الإِحسان الرقيق منك، فدعها الليلة في نجوة منا تحوم ولا ترود، وتشهد ولا يقترِع لها بصوت.

إنك يا صاحبي عظيم إذا فهمت، كبير إذا نقدت.. ولكنك سطحي إذا رغبت، محلول إذا هويت. بودي لو أنعى إليك حواشيك الرقيقة وإحساسك المرهف! ولكنكم معاشر الظرفاء، تجعلون لها المقام الأول في فضائل الرجل، وأسمّيها أنا مثالب لا يستوي معها نضج الرجل، ولا يستقيم له رأي أو عزيمة، أو عقل.

أتخافني يا صاحبي؟ تخاف أهدابي الوطف، وتسحرك جفوني الفاترة؟ وتتبخر حقيقتك في أول سيال شعّ من أجفاني الدعج؟

ماذا تركت لذات الخلخال والقرط؟

إني أفهم أن تتفتح نفسك لمرأى خلاّب، وجَمال مشرق.. أفهم أن تطرب، وتتلذذ، ويقع في نفسك السرور والغبطة؛ لجَمال طالعتك فيه ناحية مشرقة، وفتنة أخّاذة.

أمّا أنك تتبخر، وتعود هلاماً أتلمس حقيقتك فلا أجدها، وكينونتك بصفتك رجلاً هصوراً فأفقدها، فذلك شيء لا أعرفه.. شيء يضيع فيه إدراكي، ويقصر عنه فهمي!!

أريد يا صاحبي أن تكون لأختك مفخرةً تطاول بك أقيال الرجال، وتستعديك على مدلهمات الأمور.. لا هلاماً يتبخر مع أول إشعاع، وغازاً يفنى في أول سيال!

أريد أن أرى فيك الأخ الذي انتظرته طويلاً، وترقبته كثيراً، وحلمت به في ليالي الشتاء المقرورة.. يقرأ لي من شعر أمية ابن أبي الصلت، وأقرأ له من لزوميات المعرّي ..وتصوّرته في ليالي الصيف يرافقني إلى مراتع الجمال نتنسم طراوة الوادي الأريج.. تتكسر أضواء القمر على حواشيه.. نقف على شطآن الغدير، فنلتقط ما ترك القرويون من ثمار الخوخ على جوانبها نقضمه، ونتقاذف نواياه، أو نرجم به الضفادع الآمنة في قاع الغدير فنثير نقيقها، ونقلق سكينتها.. أو نجلس تحت شجرة البسياني نتأمل أوراقها الزرقاء تلمع كأنها قطع قُدَّت مِن أديم السماء وقت صفائها، فنمت في أديم الأرض، وأرسلت غصونها وأوراقها لامعة زرقاء، ويمعن تأملنا حتى يسمع هذا السهل المغشي بالفواكه والأثمار قامت على سوقها نتيجة تفاعل بين الأرض والماء.. أغلق سره على الكيماويين، ودفت حقيقته على المفكرين.

لهذا كنت أرقبك وأنتظرك لا لتتغزل في فتنتي، بل لتشاركني متعة التأمّل الواسع.. فهل لنفسك مبتغى وراء هذا؟؟ أنت تريدني أن أكون (حليلة) لك، وأنا أستطيع أن لا أقصيك عمّا تريدني عليه، ما دامت مشيئة الله بيني وبينك..

ولكني أحس أني سأكون مطالبة لك بروحي ونفسي قبل أن أكون لك بجسمي!.. وإذا عرفت أني ربيت على نحو خاص في أحضان هذه الوديان التي لا حد لنهايتها، وأني أشربت حب الحرية والفكر الطليق، الذي لا تحده قيود الغلاة، ولا يقف دونه تقليد المقلّدين، عرفت أي خيال تبني عليه مآتيك، وأية هاوية ستشرف بي عليها!

أنا فتاة قرأت ما قال الله، وقال الرسول.. وعرفت الدِّين في سماحته وبساطته التي عرفها فيه الرعيل الأول من رجال الإِسلام، ونشأت لا تعوقني سخافة، ولا يثبطني تقليد عن النظرة الصحيحة.. ففي أي مجتمع ستنظمني؟. –إنك ستمسي بي أضحوكة غدك، وأصبح وقد فقدت بك أقانيمي الثلاث، نفسي وعقلي وجسدي ..إنها صفقة خاسرة للشريكين أرى أن تقصيها عنا، وأن نبقى أخوين ما طاب لنا الإخاء، وحفظ علينا ديننا ومروءتنا.

أرى أن الإخاء أبقى من نشوة زائلة بزوال الفتنة وأبقى بترفُّعه من لذة الحس، وأدعى للسعادة والخلود.

قالت هذا فتركته شارد اللب، سادراً لعقل تلج به أمواج من الهموم تعقبها أمواج.. نسي نفسه فيها كما نسي وجود صاحبته معه، وانثنى يزرع الصالة ذهاباً وجيئة لا يعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي!! كان يصافح النافذة فلا تحس قدماه بالاصطدام كأنه أحد أشباح الليل لا يعي ولا يشعر أن له وجوداً أو كينونة..

وقادته قدماه إلى عرصة الدار، وكانت مشرفة على السهل المنبسط وراء الأودية والسهول تكتنفه التلال والهضاب وأشجار السدر المثقلة بالنبق ..

وكان النسيم يهب بليلاً رخياً، وصقيع المساء يغمر الأفق بطبقة رقيقة من الهواء الندي، وفوح الزهر يعطر الجو بأريجه، فانتعشت نفسه، وأثلج صدره، ولطفت برودة الجو حرارته، فاجتاز العرصة إلى درب منحدر في الربوة يصل ما بينها وبين حاشية الوادي في طريق مجلجل بالأشجار الباسقة، متشابكة غصونها، متدلية أفنانها، انتهى منه إلى غدير صغير، تناثرت منه على حوافيه بعض القرويات، يملأن القرب، أو يغسلن بعض الأواني، فانتبذ ناحية منهن بعيدة، وتهالك على نفسه فوق حجر ناتئ من الغدير، وأدلى ساقيه يغمرهما بالماء، كأنه يطفىء بها لهيباً، يشعر وقْدته في أعماق نفسه!

أحس بخطوات رشيقة فوق الحصى على حافة الغدير، فالتفت ليرى ((فكرة)) تجمع ذيل ثوبها لتقترب إليه، فما مَلَكَ إلاّ أن قام في أدب يحييها، ويوسّع لها من مقامه فوق الحجر الناتئ، فقالت:

–ليس هنا بالمكان الذي يسعنا، فإذا رأيت أن تتبعني فإن في القصر منتجعاً دافئاً، يقينا طراوة الليل، وندوة الغدير، وفيه متسع للتعقيب على ما فرط من حديثنا.. تعقيباً يجلو سوء الفهم، ويلطف من شدة الوطأة.

قالت هذا، ثم دارت على عقبها، متجهة إلى الطريق، ورأى نفسه يتبعها ويجتازان معاً الطريق الذي سلكه حتى انتهيا إلى الربوة، فأشرفا على نور قويّ يشع به القصر، وأصوات كثيرة تتجاوب في أنحاء الصالة، فعلم أن (ابن الشيخ) قد وصل، وأن القوم في انتظارهما.

ومالت على أذنه قبل أن يبلغا باب القصر وقالت تُسِرُّ إليه في صوت خافت، تتعثر ألفاظه:

لو كنت حادة الأعصاب، أستجيب للعاطفة أول ما تبدو لأعلنت على باب الدار قبل ولوجي خطوبتي منك، وأشهدت (ابن الشيخ) وقومه وتركتهم الليلة يحتفون بنا، ولكني أحب الأمور أن تمشي رتيبة في مدارجها من الروية والفكر، ولا أمقت شيئاً مقتي للتسرّع والهوج، وأخذ الأمور على عِلاَّتها!

قالت هذا.. ثم خطت إلى الباب دون أن تترك له فرصة الكلام، وبادر القوم إلى تحيّتها فكانت تصافحهم في حرارة، وتحييهم في طلاقة.. وعمدت إلى صديقها فعرفتهم به، وأحلته من المكان في الصدارة، ثم انثنت إلى زاوية من المجلس فأخذت مقعدها في إيناس وعِزّ، كأنها سليلة أحد الملوك في الصحراء، أو سيدة عظيمة من سادة القبائل في العهود الأولى.

(17)

وهاله.. بل وشد في ألمه، أن لا تجد ما تفتح به حديثها إلاّ شأنها معه..! فقد ابتدرت بعد التعريف به تقصُّ عليهم قصة لقائها به، وما كان من شأنه في طلب الطعام، وشأنها في إضرام النار له في الكهف، وما شأنهما معاً بجوار عشة العجوز ..!بأسلوب طبيعي غير متكلّف.. لم تتجاوز فيه معنى من المعاني التي طرقا، ولم تترك ناحية من النواحي التي يتحاشى مَن في سنّها وجَمالها من ذكرها ..إلى أن جاءت على حديث السحر الذي رآه يتألق في أجفانها الدعج، وما كان من تأثيره في تبخر حقيقته مع أول سيال شعَّ منه ..!في لغة لا تبدو فيها معاني الزهو والخيلاء بقدر ما تبدو فيها العفوية، ونقاء السريرة، وحب الصراحة والوضوح..

وانتهت من حديثها بما كان من رأيها في طبيعة الارتحال المتأصلة في الرجل، وما عقّبت عليه من الحديث عن ميولها الخاصة، وأفكارها الشاذة، وحبها العزلة.

كان القوم ينصتون إلى حديثها وبسمة خفيفة يشيع ظلها على وجوههم. وكان (ابن الشيخ) يبدو في إنصاته ومتابعته الحديث.. شديد الغاية بروايتها، كما كان صاحبنا في إطراقه ووجومه وانطوائه على نفسه بين الجلوس.. يعبر عن مدى الخجل الذي يساوره، والأزمة النفسية الشديدة التي يعانيها. وعندما أوفت إلى ما أوفى إليه أمرهما، وهما يتركان الغدير في طريقهما إلى البيت، تركت عيون القوم تصوب أنظارها إلى ضيفهم الغريب، ثم انفتلت تعدو إلى خارج الغرفة وتصيح في الخدم تستعجلهم الطعام!

وتحرك (ابن الشيخ) في مقعده. وقال وهو يخلل لحيته ويجعلها إلى أسفل وجهه:

–مرحباً بالضيف.. حل وادينا ونزل بنا، ونسأله العذر فيما فرط مِن أختنا في حقه. وأختنا كما رأيت لا بالعاقلة فتحجزها على غرار المخدرات في بيوتنا، ولا بالمجنونة فنولي عنها!!

وتنفست كربة صاحبنا، وانجابت سحابة داكنة كانت تغشى محيّاه، وتفتحت نفسه للحديث فقال:

–كنت أشفقت على صباها أن يزويه التجوال الضال.. فوددتها مصونة في بيتي معززة عند أهلي، ووددت أن ينتفع بآرائها في الحياة ملأ من حاضرتنا بين مكة والطائف. ولكنها أبت لنفسها ما وددت، وحال تفكيرها الخاص دون ما رأيت.

واعتدل أعرابي في زاوية المجلس، وقال وهو يشير بعصاه في وجه محدّثه على عادة الأعراب:

–لو كنا نملك أمرها لاخترناها لأمثل شاب في فتياننا، ولو كنا نلمح الظن فيها لأقمناها بسيوفنا. إنها يا صاحبي عقيلة علم لا ينفد، وعقيدة إيمان لا يتسرب إليه شك، وإنها بعد ذلك رأي شاذ لا ينفك يسفِّه أفكارنا وآراءنا وعاداتنا، وبودّها لو جاءت عليها دفعة واحدة هدماً ومحواً.. كما تجيء العواصف الشديدة على غيضة واسعة الهشيم فتذروها!!

وعادت ((فكرة)) في هذه اللحظة، تجر صبياً في يدها، حتى وقفت على القوم وقالت توجه الحديث إلى (ابن الشيخ).

–ما شأن هذا بالغرفة المقفلة؟!

فابتدرها أحد الحاضرين:

–إنه يعصي أباه، ويأبى أن يسلس لطاعتهم. وقد جرَّبنا كل أنواع التهذيب المعروفة فلم تنجح؛ والعرب تقول: (آخر الدواء الكي). فلا أقل من أن نحبسه عن الشر إلى أن تلين قناته، وتكسر شباته.

فأرسلت الصبي من يدها وقالت: إنكم سترونه ينتظرني تحت الجدار المشرف على الغدير. في أدب الرجل الفاضل، وإنكم لو كشفتم في روحه عن الجوانب التي تكشَّفت لي، لعرفتم أي صبي مؤدب هو؟ إنه في جلسته –التي سترونها الآن.. لطيفة هادئة تحت الجدار المشرف على الغدير– لإطراقة تدل على مبلغ ما يتمتع به من تفكير سليم .ها هو يبدأ خطواته في أدب، ويمضي إلى حيث أشرت مطيعاً هادئاً، وإذا راهنتموني على غير ذلك فسأربح رهانكم دون شك!

كان الصبي قد أرسل من يدها في أعصاب تركها الإيحاء ترتخي ويتحلل توترها. وكان قد بدأ يخطو إلى حيث تشير، في ثقة المؤمن من جديد.. بفضائله، وأنه ذو جوانب لم تتكشف لآبائه، وتفكير سليم يدل عليه إطراقه وسهومه. خطا إلى باب الغرفة طيِّعاً هادئاً تتلاحقه أبصار القوم حتى انتهى إلى الجدار الذي أشارت، فجلس جلوس الصبي الذي عرفت منزلته من الصبيان، وأطرق إطراقة المؤمن بتفكيره، وبُعد نظره، وجَمال جوانبه التي ستتكشف الأيام عنها رائعة وهاجة!

وقالت وقد أصبح الصبي على نجوة بعيدة منهم يسارق النظر إلى المعجبين بإطراقه:

–إننا نغالي في تصوير الجريمة بقدر ما نغالي في مهمة العقوبة، وكثير منا مَن لا ينكر قوة العناد في نفسه، ويعرف كيف يحرن عندما يُستثار، ولكننا بالنسبة إلى الأطفال والمذنبين، ننسى هذه الحقائق أو نتجاهلها؛ فلنساعد الطفل بتصرفاته السيئة، ونحمله على أن يكون عنيداً، طاغياً لا تكسر شباته!!

إنه يخطىء كما يخطىء الكبير، فنغدو في تكبير خطيئته، إلى مدى بعيد، ونتركه يشعر أننا لا نفهم الأشياء على نحو عادل، فنستثيره ونعلِّمه العناد، ونضع فيه الجرثومة الأولى للشرور والآثام.

ولا يكلّفنا الأمر أكثر من نظرة عادلة، نتجاوز فيها عن أخطائه الصغيرة، ونغمره فيها بالعطف والحب والتوجيه والاستهواء.!

إذا استهويناه تركنا مشاعره تحس بأنه غير شرير، وتركنا واعيته الخفية تسجل أدلة صلاحه، فيعنو بالتدريج لما تركّز في واعيته، ويتكيّف سلوكه بالكيف الذي اعتقده عن نفسه. فيغدو مثال المهذب الصالح.

أما ونحن نبالغ في خطيئته الأولى، ونسِمُها بميسم الشر والإِثم، ولا نبالي بعقيدته في عدلنا، تصغيراً لشأنه، فإننا سنغدو منه على طرفيْ نقيض. نهيِّئه بذلك لخصومتنا، ونثير في إحساساته كوامن الدفاع عن النفس.. فيغدو عنيداً لا يعنو لأوامرنا، شريراً لا يبالي بنا.

لأمر ما كان العُصاة في الأرض، وكان المتمردون، وكان الشريرون الآثمون.. إنه المجتمع يُهيّئ الكثرة الساحقة منهم للشر. ويعلّمهم كيف يعصون ويتمردون، ويودون لو قلبوا بنا وجه الأرض.

إنه البذرة الأولى يبذرها الوالدان بكبريائهما على تفهم روحه الصغيرة، وعنتهما في تفسير ما يبدر من عبثه، لا يلبث أن ترعاها بيئته بظلمها وطغيانها عليه، فتتأصل فيه الكراهة والبغض، وينشأ على الحقد لكل ما هو كائن حي، فيتمرد ويستهين بالمعاصي، ويتعلّم الجريمة والإِثم، على أنهما عاملان من عوامل الدفاع عن النفس والثأر بهما من المجتمع الطاغي..!

ويأبى المجتمع على نفسه الفلسفة، ويأبى التبصّر في نفسيات الآثمين، ويستهين بأقدارهم فيمعن في حقارتهم ونبذهم.. فيمعنون في تسفيهه وكراهته، ويمضون في آثامهم حتى يستوي منهم المجرم العاتي، والفاتك المهصور!.. ليتنا ندرس فلسفة الأخلاق ونفسيات المجرمين، بقدر ما ندرس نظم العقوبات وقوانين الجرائم.

إذن، لجئنا على أكثر سجوننا هدماً وتدميراً، وانتفعنا بأكثر مواهبنا المغموطة في البناء والتشييد.

هذا صبيكم الشرير العاتي لا يهيئه العسف والطغيان لغير الجريمة والشر، ولا يهيئانه بسوء التقدير إلاّ للعناد والحرن، وإن فلسفة مبسطة لنفسيته.. تدلكم على مبلغ كبريائه وعظمة روحه، وإن في استطاعتكم توجيه هذا الكبرياء إلى الوجهة النافعة بشيء من الإِيحاء، وفي استطاعتكم إيهامه بأنه كبير في صمته، عظيم في إطراقه، وجيه فيما يبدو من أدبه، في استطاعتكم بمثل هذا الإيحاء صوغه على النحو الذي تريدون.. دون كبت أو تعذيب!!

تعالَ.. إليَّ يا حسن، وطالع في هذه الوجوه تقديرك. إنهم الآن يكتشفون نواحيك الفاضلة التي أبيت إلاّ أن تسترها بعبثك وكثرة مجونك، وإنك بهدوئك

هذا ستساعد على اكتشاف مناحيك الطيبة. وباستمرارك في مثل هذا الصمت، ستتجلى أوضح ممّا كنت وتمسي أكثر بياناً وجلاءً!

(18)

ومضت ساعة.. انصرف الحديث بعدها إلى شؤون كثيرة، ومُدَّت جفان الثريد، فطعم القوم وانصرفوا.. ولم يَبْقَ في المكان إلاّ سالم يؤانسه (ابن الشيخ).. أما ((فكرة)) فلم يبدُ أثرها!

وما أن تناصف الليل حتى استأذن (ابن الشيخ) في الذهاب.. متمنياً له طيب الرقاد، فشيعه شاكراً، وعاد إلى مكانه يحاول النوم فيجفوه، ويخادعه فيعمد في البُعد.

تمثلت له كل الحوادث من أول يوم صادفها.. إلى آخر يوم أسلمته الطريق، ليزور أهله في الطائف، على أن يلقاها في جنوب الوادي، ومرّت متتابعة أمامه الأيام العصيبة التي قضاها في الطائف بين زوجه وأولاده في انتظار أوبته، ثم أوبته مسوقاً بدافع لا يملك فيه نفسه، ثم ما عقب ذلك يوم الغار، وما صادفه في أحضان السوائم، وما قاساه من صدمة سقفه! وما تلا ذلك جميعه من رؤى وصور كانت تتتابع في مخيلته تتابع المناظر في الشريط السينمائيّ فتقضُّ عليه مضجعه، وتبلبل أفكاره، وتتركه يتململ تململ مريض ألهبته الحمّى، ومشت رعدتها في مفاصله وأعضائه، وشقَّ عليه أن يستخذل لهذه الصور، ويتململ لآلام الأرق، فترك مكانه إلى باب الغرفة.. فأطل على أفقٍ نائم في أحضان الطبيعة.. تتراءى في حواشيه نجوم خافتة الضوء كأنها بصيص ضئيل من آمال البائسين في دنيا الحياة.

فاستند إلى حائط مهدم عند بابها، وراح يسترسل في هواجسه وأفكاره.

قال لنفسه :ليس، فيما أُساق إليه اختيار، لأنني لا أختار لنفسي هذا التبلبل وهذا الشتات، وليس فيه اغتصاب لأني مسيطر حتى هذه اللحظة على أعصابي.. وهي بدورها تنقل خطاي إلى ما أمشي وأتنقل، فأي معنى دقيق بين هذا التضارب؟ وأي فلسفة في هذا التضاد؟!

إن الأمر لا يحتمل النقيضين.. فإمّا أن أكون مختاراً لما أسعى إليه، من تبلبل وشتات، فأكون كمن سعى إلى حتفه بظلفه، أو إنني مسوق إليه مدفوع غير مختار ..فأنا إذن سائمة تسيِّرها عصاة الراعي في أي اتجاه شاء!!

إن كان الأول، فها أنا حازم أمري من هذه اللحظة على النكوص والعودة، وإن كان الثاني، فسأمتحن السيطرة على نفسي، والهيمنة على أعصابي.

وقام من فوره ملتهب الحواس، معتزم العودة، فخانه الهوى واستعصى عليه المراد، ورأى قواه تنحل، وإرادته يصيبها الوهن والفتور.. فعلم أنه صريع الهوى، ملتاث منذ اليوم، وأنه رهين أسير.. فاستطار عقله، وجن جنونه، وتمنّى لو تردى من شاهق، فختم حياته وأسكت أنفاسه.

ومضت عليه ساعات لا يعرف عددها، كان في أثنائها نهب الحمى فريسة الألم.. حتى أطلت ذكاء من مخدعها وراء القمم العالية، فهبت النعاج من مرابضها، ودلفت الفتيات يحملن القرب إلى الغدير، والفتيان يسوقون السوائم إلى المراعي في مهابط السيول، ومرتفعات الوادي.. قام يتحامل على نفسه إلى الناحية التي فيها الغدير، وتريث حتى خلا مكانه بالأمس، فوق حافة، فأخذ مجلسه منها وغاص إلى ساقية في الماء، وبدأ يغسل رأسه ويديه وأطرافه كأنه يطفىء لهيباً يستعر في أوصاله!

وتلطفت جذوة الحمّى بتأثير برودة الماء، فعاد طريقه إلى الممشى المتصل بالربوة، ودار بعينيه في السهول المترامية على حواشيه، لعلّه يعثر على أثر (فكرة)، أو يجد مَن يدلّه على مكانها.. وخيِّل إليه أن السابلة على طول الممشى، والفتيات على حوافي الغدير، والفتيان في ثنايا الغياض، والرعاة بين أكناف الروابي؛ يسارقونه النظر، ويتطلعون إليه في شيء من معاني الأسى والأسف!!

وطرقَ سمعَهُ حديثٌ كان يجري بين اثنتين من الصبايا، تردد فيه اسم ((فكرة)) و (ابن الشيخ)، فاقترب حتى حاذاهما وسمع إحداهن تقول لأختها:

–إن (ابن الشيخ) اصطحب ((فكرة)) إلى بستانها خلف الوادي ليُطلعها على ما أحدثه من غرس.

فرأى نفسه يدنو منها، ويسألها عن المسافة إلى البستان، ومدة بقائها في العادة إذا ذهبا هنالك.. فعلم أنهما لا يبرحان أن يعودا من يومهما قبل أن يظللهما المساء.

وأخذ طريقه إلى القصر القديم، فالتقى على بابه بصبية كانت تنتظره في يدها صحفة عليها شيء من الطعام، وضعتها أمامه على حافة النافذة أول ما رأته، وعادت أدراجها دون أن تنبس.. فعزَّ عليه أن لا تصله إشارة من))فكرة ((عن وجهتها، وأنه يُعنى بطعامه أكثر ممّا يُعنى بروحه.

ومرت الساعات ثقيلة بطيئة تملؤها الوحدة والضيق، وتوحشها الأفكار السوداء الكاشفة، والقلق العارم المضطرم.

وتعالى النهار فتعالت معه الشمس، ونشرت حرارتها على قنن التلال، وشعاب الجبال، وتقحَّمت نوافذ الغرفة وبابها الوحيد، فأحس بوقدتها تصطلي في جسمه المحموم، وشعر بكيانه يتخاذل.. فتهالك على نفسه مكبوباً على الأرض، وغذَّ في غيبوبة عميقة.

ومضت ساعات لا يعرف عددها؛ تنبَّه في أثرها على صوت الصبية تناديه حاملة إليه صحفة الطعام، فتذكَّر أنه لم يتبلغ من يومه، وتذكّر أن بقاء الصحفة مفعمة بالطعام عنده؛ مدعاة لكل حديث، فعمد إليها، وراح يفرغ محتوياتها في الأرض خلف النافذة، ويسلّمها الإِناء.

وراود نفسه على لقمة يقيم بها أوده من طعام الغداء فمجَّها فمه، ولم يستسغ طعمها فتحامل على نفسه. وغدا إلى الغدير، فخلع ثيابه، وأسلم نفسه إلى مائه البارد.. يطفىء ما توقَّد من جسمه، واستمر في حنايا أضلاعه!

وخُيِّل إليه أن في بقائه في القرية تعريضاً بهوانه، واستثارة لقصة غرامه، ولوكها في الأفواه، فعقد عزمه على تركها من ساعته، وأن يمضي في طريقه إلى أصحاب العرس في شمال الوادي.. فقد بات على كثب من ليلة الزفاف، ولا معدى من لقياها هناك، ووقوفه منها على بيِّنة يفصل فيها أمر نفسه.. فليس في استطاعته أن يصدق الود لامرأة ليس لها مثوى، ولا لأفكارها قرار، ولا أن يبقى فؤاده مرتع أهواء ضالة وأمانٍ ضائعة!!

وسدد خطاه أول ما ترك الغدير إلى الطريق العام للقرية، والتقى في طريقه بغلام من البدو، فأوصاه أن يأخذ الصحفة من القصر إلى بيت مضيفه، وأن يبلغ مضيفه نبأ ارتحاله.

(19)

وأسلمته القرية إلى سهل ينبسط أمام تلالها في رقعة واسعة يضرب في أحشائها مجرى السيل في طمأنينة ولين، وتقوم على أكنافها، على مدى البصر، قمم عالية من الجبال، تحتضن بعض البساتين بين قيعانها، وترفع بعض المنازل على أكتافها فتبدو كأنها حارسة لما بنت في القيع.

وعرج به الطريق عن مستوى السهل، إلى مدخل صخري بين سلسلتين من الجبال، ثم هبط به إلى دروب تغشِّيها أشجار ((السَّلم)) تتلَوَّى في معارِج وعرة، ثم تطمئن بين تلال متناثرة على حفافيها، وصخور قائمة أو ماثلة بين جوانبها، تنحدر منها قطع ملساء.. فصلت عنها في عناية، فبدت كأنما صُبَّت في قوالب بأيدي أمهر الفنانين، واستوت سطوحها كأنها نماذج لصنّاع أتقنوها، في أشكال هندسية عديدة، وتركوها شاهدة لما أتقنوا.

وعرَّج به الطريق، بعد لأْيٍ، في أخاديد تجمعت فيها مياه المطر، فخاضها بين عساليج تتدلى على حفافي الماء، حتى برزت به إلى درب موطأ من وراء بستان محاط بسور مرتفع من الطين النَّيْئ.

وكان الجوع وطول الطريق قد أخذا من نفسه مأخذهما فمضى في ليّته مع الدرب متهالكاً، حتى تكشَّف له الجانب الشرقي من الحائط، عن باب مفتوح على مصراعيه.. رشت أرضه بالماء، وقامت على جانبه مصطبتان مفروشتان بأنواع من الفرو الثمين. وجلس على حافة إحداهما شيخ من الأعراب، في وجه مغضوْضن ضامر، ولحية طويلة شعثة، وجبهة عالية مرتفعة.. يطالعك منها سمو المحتد وعراقة الأصل، في بشرة لفحتها الشمس، وجبين غضَّنه تقدم السن

وطول عهده بالحياة. وما إن سلَّم حتى انتصب الشيخ واقفاً في قوام فارع، وحيّاه بوجه مشرق، وديباجة لطيفة، ثم دعاه إلى الجلوس، فجلس منهوك القوى، فمال إليه يلاطفه ويحييه.

وكان في حالة من الوعث والرثاثة، وفي اطِّراد نَفسِه من التعب، ما جعل الشيخ يزيد في إقباله ويعطف بكليته عليه.

وانطفأت الذبالة الرقيقة الباقية من مصباح النهار، وانتشر الظلام في حواشي الأفق، وزالت ذوائبه على التلال والجبال، وأقبلت قطعان من الغنم تنحدر من هضاب مخضلة في طرف من الوادي، يقودها الرعاة إلى حظائرها في مرج منحدر من جانب البستان. وتحرك الشيخ للصلاة، وأمر لضيفه بالوضوء، فأسرع إليه خادم كهل يحمل إبريقاً من الفخار وسجادة من حصير مجْدولٍ، بسطها للضيف، حتى أتم وضوءه وصلاته.

ومضيا معاً في طريق جانبي إلى جوار البستان.. ينتهي إلى رحبة صغيرة، ثم صعدا سلّماً من الخشب، يصل إلى غرفة واسعة نظيفة فُرشت أرضها بالبسط المجدول من الصوف الناعم، وزُيّن صدرها بسجاد عجمي، وتناثرت في أركانها المتكآت من القطيفة، فتطرَّح الضيف على نفسه بجوار إحداها، وقام الشيخ ينادي من كوة صغيرة على خدمه، يلتمس لضيفه العَشاء.

وحمل الخادم الكهل إليهم مائدة حافلة بالفطائر الدسمة، واللحم الطري، فتفتَّحت نفس الضيف على الزاد.. والْتهمه التهام الجائع، وسرَّى عن نفسه إقبال الشيخ عليه وميله إلى إيناسه، وارتاح لمثواه في غرفة منشرحة نظيفة.

وأقبلت فناجين الشاي كأنها أكواب من لجين يلمع فيها لونه القاني، فأقبل عليها يستشفها في نشوة المخمور.. أذواه الصدي، وأودى به طول عهده بالطعام والشاي!

ودار الحديث في أشياء كثيرة.. حتى جاء على ذكر الزفاف، والحفل الذي سيقوم بجوارهما في القرية المجاورة، وعلم أنه سيكون مساء الغد.

وبات في ليلة مريحة، وتنفس الصبح.. يتضوع الأريج الشذيَّ في نفحاته، فقام إلى طنف يشرف على الأودية المتموجة بالخضرة، والزهر، من ورائها مرج مخضل، متصل بالجبل من إحدى نواحيه، وبحائط البستان من ناحية أخرى، حيث قامت حظائر الماشية مسقوفة بأعواد الذرة اليابس، وأرسل نظره.. فإذا سحابة تسحب ذيولها على رؤوس الدوح وقمم الجبال، وقطرات من الغيث تسَّاقط على المرج، فيعبق عبيره ويملأ الجو بفوحه العطري، فيتنسم ملء رئتيه.. لتعود إليه أنفاسه منتظمة.

ودعاه الشيخ إلى الصلاة فصلَّيا معاً، ثم استأذنه للرحيل فأذن له، على أن يعود إليه ما سمحت الفرصة وأتاحت.

(20)

ومضى به الطريق يتحدر بين مدارج السيول، أو يصعد بين مرتفعات ونجود صغيرة، تتخللها البيوت من الطين أو الحجر.. على مسافات تتقارب وتتباعد بقدر ما تلتوي بينها الطرق، أو تنحدر عنها مدارج السيل.

كان يسير وحده يؤنسه أزيز السواقي، آتية من مخارق الوادي، وكان يلتقي بين كل فترة وأخرى بالرعاة يسوقون قطعانهم بين المروج، أو يرسلونها إلى العشب المخضَّل بين ليات الوادي.. وكان الريح يهب عليلاً فاتراً، فيعبث بأشجار التين على أكناف المروج، فتسمع لحفيف أوراقه نغماً شجياً رخيماً.

كانت الشمس صاحية، تنقل خطاها بين أكتاف الجبال ورؤوس التلال، وتترك بعض النجود الصغيرة غرقى في وهجها، وكان بعض أطفال القرويين ينتشرون بين مهابط الماء ومساقط السيل في طول الطريق.. يحملون سلاَّتهم على رؤوسهم، يجمعون فيها أفواف الورد بين حمراء وبيضاء، ويلقطون ما تناثر من ثمار العُنَّاب، فيجعلونه في أفواههم، ويتراشقون بنواه في مرح ولعب.. كأن الحياة في نظرهم لا تعدو عشباً نضيراً، ومرجاً مخضلاً، وزهراً مفوفاً، وأثماراً يأكلون أطايبها، ويلفظون نواها، في غفلة من دواليب الدهر ودورة سواقيه!

وطال به الطريق، واشتد وهج الحر، ونال منه طول المشي، فلاح له كوخ ينعطف إليه الطريق في درب مخصب طويل، فأخذ سمته إليه في إعياء، فاستقبلته

في خطوات منه فتاة ناهد أخبرته أن ليس في الكوخ غيرها، وأن أمها سبقتها إلى محفل العرس عند جيرانها إلى أن تلحق بها عند المساء.

وما إن رأت في وجهه لفح الشمس، وضمور التعب حتى تقدمت إليه أن يركن إلى فَيْءٍ قريب منها على حافة مصرف من مصارف السيل.. وما لبثت إلاّ قليلاً حتى وافته باللبن والجبن وأقراص الذرة، وأبت عليه أن يواصل المشي حتى يعود أبوها ليحمله قبيل الغروب، فيتولّى ضيافته، أو ينقله على الجمل إلى أقرب ملتقى للسبيل.

ولم يلبث إلاّ ساعة حتى جاء أبوها في غير عادته مبكراً، وبعد أن اشتدَّ في محاولته على المبيت.. ولم يذعن، نقله على جَمله في الطريق المؤدية إلى بيت العرس.

وما إن اصفرَّت الشمس في ميلها إلى المغيب حتى تراءى له، عن بُعد، شرف مرتفع يقوم عليه منزل واضح المكانة بين بيوت صغيرة، يطول عليها بشرفتين تطلان على سرة الوادي من ناحيته الشرقية.. فاستوقف صاحبَه الجمَّال بدعوى خاصة عارضة لا بد له منها قبل بلوغ القصر!

وبعد أن تركه يعود بجمله. لوى سالم في طريق جانبي، تتخلّله دروب متشابكة، تنتهي عند شعب ضيق مجهول المسالك، حتى إذا وقف عند مضيقه.. تبيَّن له درب يطمئن بين سلسلة من التلال، ويمضي في اطمئنانه، مستديراً إلى نهاية تحاذي الشرف القائم عليه المنزل من ناحيته الخلفية، فمضى فيه حتى كان على

نجوة من الشرف، صادفته ربوة ممرَّدة السطح، فصعدها وأشرف من سطحها على السهل المنبسط أمام القصر، تكتنفه على مرامي البصر مناظر المروج، وتحتضنه آفاق وعرة من التلال والهضاب.. ورأى الشرف المزدحم ببيوت القرويين يخوض في سُرَّة الوادي، وتصطفق بين أقدامه زمرة من القرويين، يموجون في أثواب زاهية، ويلوحون في الهواء بسيوفهم وبنادقهم، وجلبة صاخبة تملأ عنان السماء بأهازيج منظمةٍ، وأغانٍ مرتلةٍ.

وسال ذوب الأصيل على أكناف الأفق، وبدأت قوادم الليل تحوِّل الكون إلى لون داكن يتعذر منه تمييز الأشياء، وبدأ بهر الشمس ينجاب عن صفحة القمر كامل الاستدارة، لألاء، كأنه الفضة الصافية المجلوَّة.

وتطلَّع في جلوسه على سطح التل إلى الزمر المائج من القرويين.. علَّه يميِّز من بينهم ((فكرة)) **..فحال الإظلام دونه، فاستأنف المضيَّ، منحدراً من التل في طريقه إلى الحشد المتكتل في جنبات السهل.. حتى وازاه، واختلط بالمائِجين حول أكوام النار المشتعلة يصطفق لهيبها ويستعر، ويرسل ألسنته حمراء تطعن في أحشاء الظلام، فتبدو الوجوه في ضوئه متوردة، والسيوف لامعة.**

وتفتَّح سمعه للجلبة الصاخبة، فاستوى منها نغم مرتّل، وترجيع منظّم، وصافحه صوت الحادي في نبرة واضحة وأداء قوي:

يا عم لا تفرح علينا بكثرة	**والكثر يا عمِّي وحنَّا شواء**
إن الطيور كثيرة أظناؤها [1]	**إن الحرار [2]قليلة الأظناء**
حنّا مصاليب الحروب بروسنا	**حنّا حصاة الداء على الأعداء**
حنّا ندِيّنْ جاءنا من دَيْنِنَا	**ونْديّن الديرة [3]بغير جزاء**

ويرجِّع صوته في ترتيل منظّم شخوص تموج ملتفة حول النار المشتعلة، في حلقة تميد بالراقصين في حركات رشيقة، وتواثب منظّم منسجم. مشرَّعة سيوفهم، منطلقة أصوات بنادقهم تدوي في الفضاء، كأنها صدى للترجيع المنظّم والنشوة العميقة التي اشتملت الراقصين والمتواثبين.

ومضى يجوس في حواشي الحلقة الواسعة الزاخرة.. يطربه دوي الطبول، وأهازيج المغنّين. وراقه غزل الشعراء فأرهف سمعه، وأنصت إلى معانيه الرقيقة:

---

(1) - ظناؤها: يريدون بها الأولاد.
(2) - ويريدون بالحرار: الأحرار.
(3) - الديرة: الحي من القبائل.

ما سجا البلبل بصوته أو نَعق
أزرق الطيقان [4] بالدوح الوريق

ما تجلجل صوت رعدُهْ أو غبقْ
بالخزامى والنَفل إلاّ وفيق

من محبة خرّد بالمفترق
عارضَنْ لي عند مثناة الطريق

والْتزمت بكاعب منهن أرق
وانطلقْ يهتز كالغصن الوريق

جل الإِله الّلي خلق
في شفايفْهن أصناف العقيق

لو تشوف خدودهن وقت العرق
كان عُفْتَ المسك والريح العبيق

---

(4) - يريد أنه مطوّق باللون الأزرق.

من ثناياهن براقٌ بَرقْ **أثبتوه أهل الحسا وهْل الحريق**
ليت ((ابن يعقوب)) منجوب العمق **شاف لي زمل [5]العذارى يوم سيق [6]**
كان عقله فارقه ولاًّ شهق **شهقة من عقبها يبقى غريق**
كم وليٍّ في محبتْهُنْ زهق **بعد ثالث يوم شقّوا له شقيق**

(5) - الزمل: الجمال.

(6) - سيق: الجمال.

(21)

كان تائهاً في بيداء واسعة من الخيال.. كان دوي الطبول، وترجيع الأنغام، وتنظيم المقاطع، وسلامة المعاني المرتجزة. قد نقلته إلى غير عالمه، وتركته ((فكرة)) حائراً في فدافد لا نهاية لها من الخيال، فلم يفطن إليها وهي تخترق الصفوف حتى تحاذيه، ثم تضع يدها في هون على كتفه !ولمّا فطن إليها، كانت قد قادته في رفقٍ إلى خارجِ الحلقة، ووضعت يدها في يده تحيّيه.

ماتت الكلمات على شفتيه، وغاصت المعاني في فؤاده، ومشت في مفاصله رعدة حادة لم يتمالك معها الوقوف على ركبتيه. فانخرط على الأرض في إعياء وتخاذل، وعالج الكلام فلم تطاوعه شفتاه بغير ألفاظ مشوّشة تكسرت في حلقه.

وهالها أمره، ولم تفهم سبباً واضحاً لما طرأ. فعزت ذلك إلى وكسة تنتابه من ألم أو مرض. وقالت: وهي تمر بيدها في رفق على جبهته :أتشكو من شيء؟

فبدا كأنه يصحو من حلم، ويستفيق من سُكر، وعاد يستجمع قواه ويستعيد نشاطه، وشعر بالمعاني تحضره والألفاظ تسعفه فأشرق محيّاه، وفتح فمه بالكلام فقال:

–((فكرة)) !! ما قيمة العلم بأسره إذا كان لا يلمس الناحية السلوكية في صاحبه؟. فيفيض من إشعاعه عليها، وتنير جوانبها وآفاقها؟

والفلسفة؟ أهي إثارة من المنطق السليم، والتفكير الحر تمحِّصون بها حقائق الحياة، وتنتصرون فيها لنواحي العقل؟؟. أم هي تعلاّت وعلل تزجون أوقات

الفراغ، وتحاولون أن تدلُّونا على وجودكم!! وتثبتون أسماءكم في ثبت المفكرين والعقلاء!!

ثم التهذيب!! التهذيب ما قيمته في الحياة؟ إذا لم يتناول غرائزنا الوحشية الأولى بالتشذيب، فيحيلها إلى مشاعر حسّاسة تحس وتشعر وتتقد وتتألم؟؟

((فكرة)) !! ما في الحياة إلاّ الزيف، وإلاّ البهتان والتضليل. وإن طغيان الحاكم بأمره كعنجهية العارف بدلاه، والمدل بجماله سواء بسواء!!

((فكرة)) !! إذا أنحى مثلُك باللوم على طغيان الطاغي فليس في الأمر أكثر من فرصة تهيّئك لتحتلي مركز الطاغي المعتز بجاهه، أو المدلل بجماله. فإذا أنت تمثلين الدور إياه، وتؤدين الأداء نفسه الذي كنتِ تنكرينه على الطاغين والظالمين..!!

((فكرة)) !! ما كان أبو الطيب شاعراً كآحاد الشعراء، وإنما كان معلّماً لا يشق غباره عندما يقول:

والظلم من شِيَمِ النفوس فإن تجد
ذا عفةٍ فلعلّه لا يظلم

كان سالم يتحدث وفي صوته نبرات اليأس، وحركات الملتاث.. وكانت ((فكرة)) تصغي إليه مأخوذة بحماسته، مندهشة له.. فخيِّل إليها أنها أمام شيء جديد استحوذ على عقلية صاحبها وآمن به وجدانه؛ وأنها منذ اليوم متّهمة أدبياً في نظره بما لا يتفق ومُثُلها العليا في العلم والأخلاق.. فكبُر عليها أن تتّسع بينهما مثل هذه الهوَّة، وأن يقوم بينهما مثل هذا الخلاف على قاعدة من سوء الفهم والْتواء القصد.

جزعت لهذا الخاطر، ونظرت إليه ساهمة الوجه ملتاعة ثم قالت:

–لا تدري كم تسيئني بالتوائك فيما تتحدث؛ وأنت اليوم تروّعني إلى جانب ما تسيئني، فلو تفضلت فكنت أوضح من هذا لاختصرت الطريق، وهوَّنت علينا كلينا المشقَّة، وانتهيت بنا معاً إلى نهاية سافرة.

–لا سفور بعد اليوم ولا اختصار! كفانا عبثاً بالألفاظ ومدلولاتها، والمعاني وما يُفهم منها؛ وكان الأخلق ونحن ننعي على المزيفين زيفهم، أن نسمو بأنفسنا عما نعي ونعيب، ولكنه أسلوب الحياة.. في الحياة مَن ينعاها ويتنكر على أصحابها، ويرسل الصيحات مدوية، والاحتجاج صارخاً، حتى إذا انقلب الوضع، ودارت دواليب الحياة بالفريقين، وصادفت المتنكرين مثل المُلابسات التي كانت تُلابس غيرهم عادوا إلى مثل الزيف الذي أنكروا. حذوك القَذَّة بالقَذَّة، ورجعوا إلى مثل العيوب التي عابوها، ونسوا جميع المُثل التي كانوا يدْعون إليها، والآراء التي ينادون بها.. باسم العلم أو الفلسفة أو الأخلاق!

–ولكننا لا نتفاهم وأعصابنا تملي علينا وتتحكم في أسلوب حوارنا.. ما يمنعك أن تشير إلى ناحية الزيف في حياة مَنْ مثلي، لتعرف ما إذا كنتُ عنيدة أُمعن في تضليلي وعبثي بالألفاظ، أم أنه شيء جديد لا عهد لك به في حياة الزائفين الضالين.

–أنسيت أنني كنت على مائدتك من أيام، وأننا بتنا متفقين على الارتحال من الغداة إلى هذا البيت، وأنني أصبحت لأجد في مكانك أرضاً يباباً، وصعيداً خالياً، لا تُطمئنني إشارة تتركينها، ولا كلمة تهديني فيها إلى سوائك.. إنها الأنانية أيتها الأخت الصدوق؛ وإنه الغرور ينفث في العَقُد!!..

–وإنه..

–إنه العلم الضال، والدعاوى العريضة في التديّن والسلوك.

–وإن شئت فقل: إنه العصب الحاد والمزاج المتوتر، وإنه أسلوب الخطابة لا يسلس للمنطق.. وإنه قبل هذا أو بعده جنون الهيام، وتفكير الملتاثين من العشاق والمغرمين!!

جئني بعاشق واحد لا يلتاث، وتضطرب أعصابه، لتقيم الدليل على أنك تعيش منذ أحببتني خالصاً لمنطقك، لا يشوبك ما يشوب المرضى في عقولهم والملتاثين.. ليتك تدري أن الأمر أخصر ممّا أسهبت، وأهون ممّا شددت.. وأنني غدوت على شأني بحافز ملحٍّ مستعجل، وأني تركت مكان الكلمة التي تطلبها صفحة ضافية، واعتذرت فيها بما دفعني من أسباب، وجعلت بيني وبينك موعداً نتلاقى فيه في هذا البيت.

–لم أتسلَّم شيئاً!

–إنني وضعتها في يدٍ أمينة موثوقة، لتُسلَّم إليك في الغداة، فإذا صادفتها ظروف خاصة خرجت على طوقي، وما رسمت، فالذنب ذنب الظروف، ولا جريرة لي.. أمّا أنت ففي مكانك لم تبرح الخطيئة بما تسرَّعت، ولم تعد الإِثم بما تجنَّيت عن غير روية أو بحث..!!

قالت هذا في نَفَس مضطرب، وألفاظ لا تكاد تطمئن مقاطعها.. فقد كانت تعلم أنه يعوزها الدليل الحاضر على صحة ما تذهب إليه، وما علمت أن المصادفة التي خرجت عن طوقها بالأمس لتلوي بقصدها.. عادت اليوم تخدمها

في أدق ساعات الحاجة، وأنها مثلت بين يديها في شخص (سليم) الأسود، تنبيء عنه صرخاته وسط الضوضاء والجلبة.. باحثاً عنها، فالتفتت إليه تناديه.

–هلم يا سليم.. متى وصلت أعمامك؟

–إنهم الساعة يترجَّلون عن جِمالهم، وقد تركتهم في طلبك لأنك أمَّنْتني على الورقة التي أمَّنتني لهذا السيد.. وقد داهمنا ليلتها سيل طمي على مشارف جيران لنا، فخرجت من توِّي فيمن خرِج منهم، نبغي مهابط السيل.. وعندما عدنا في أصيل اليوم الثاني لم أجد أثراً له ولم أستدل من أحد على وجهته.

كانت عبارات الأسود تتدفق من فمه.. ويده تعالج عقدة في كمِّه، برزت من طيّاتها لفافة كبيرة قدمها إلى ((فكرة))، فما زادت أن أشارت إليه بتقديمها إلى سالم فأخذها هذا بيدٍ تتخاذل، ونظر إليها وإلى الأسود بطرْف كسير، ثم أطرق ينكث الأرض بأطراف الصحيفة في ذبول وصمت.

لم يقوَ على تسديد عينيه فيها، ولم تسعفه كلمة بالنطق ليعتذر إليها أو يقول شيئاً.. كان أشبه بعاصفة هاجت فدمدم هزيمها، ودوى إعصارها، وثار غبارها، ثم همدت فجأة فلا تكاد تسمع لها نأمة أو حساً!

كان ينقل عينيه من المارة إلى المشاعل حوله، ومن حلقة الرقص، يتواثب فيها اللاّعبون إلى مشرب القهوة صفَّت عليه الأباريق النحاسية، يتحاشى بذلك أن تلاقي عينيه عيناها.. فأدركت معنى سهومه، وتخاذل نظراته؛ وأشفقت أن تجهز عليه، ورأت أن تحيل عنه إلى أن يسري عن نفسه، وتنحل ضائقته.. فاعتذرت له بالغياب في بعض أعمالها على أن يجتمعا مع الفجر في مجلسها من هذا المكان.

(22)

ما انطلقت من مكانها حتى انطرح على نفسه متساقطاً، وافترش الرمل بقامته منهوكاً.. وكان النسيم فاتراً رقيقاً، وصفحة السماء مزدانة بقطع من الغيم؛ تتماوج في مثل ألوان البنفسج، وبرز القمر من ثنايا سحابة دكناء، فتكسَّرت أضواؤه فوق أكناف الروابي، ورؤوس النخيل، ثم ذابت بين ثنايا السهل المترامي.. فأرسل بصره إلى مطلع القمر من الغمامة الجون، وابتدر يناجيه:

–ألك حبيب أيُّها القمر؟

وحبيبك هل يشجيك ويسبيك، فتحمل نفسك على الشجو والسبي؟

وحبيبك هل يترع لك كأس الهوى دهاقاً، ويسقيك حميا الجوى سلافاً، فيثملك وينشيك؟

إنك إذن مثلي أيُّها القمر.

ولكنك مشرق الديباجة، وضَّاء الجبين.. ولم أكن أكثر من ورقة صفراء عصف بها الريح، وأذبلها الهوى.

ألك حبيب أيُّها القمر؟

وحبيبك هل يملك عليك طيّتك؟ ويمسك دون زمامك؟ ويغريك عن موطنك؟ وينسيك أهلك وولدك؟

إنك إذن مثلي أيُّها القمر.

ولكنك مقيم جوَّاب، تنعم بالقرب أنَّ جدَّ بك السُّرى، وتهنأ بالجوار مهما شطَّت بك أعناق السحاب.

وأنت أيُّها الجبل السامق، والنجود الصامتة، والهضاب الوعرة الذرا، والكهوف الضاربة في أجواف الصخور. هل رأيتنّ في هذا التيه الفدفد ضائعاً قبلي برَّحت به الأنواء، وطوَّح به الهوى، فغدا في غير طية، وخبط في غير رشد؟..

لتبق ذكراي في معارجكم زبوراً يقرأ، وقصة تتلى، وأنشودة يحدو بها الركبان كلما ارتفع بمطيهم نجد، أو اطمأن تحتهم سبيل.

قولوا: هنا افترش الأرض ماجن أضلَّه الغي؛ وعصف به الهوى الضال.. هنا تساقط على نفسه منهوكاً لا يدري!! أسعيد هو بشجو الحبيب وإغرائه، أم شقي بضيعته وشتاته؟

واستنام لمناجاة القمر، ومضى في هواجسه وأفكاره؛ حتى تناصف الليل، فشعر أن جلبة الصاخبين في الوادي يخفت صوتها، وحسبه أحد المارة نائماً، فأقبل عليه يوقظه؛ حتى استوى جالساً، ورآهم يمدون السماط عليها جفان الثريد في منبسط السهل، فانضم إلى إحدى حلقات الأكل، وتبلَّغ ما طاب لنفسه أن تتبلَّغ، وجيء إليه بأكواب الشاي والقهوة في غرار الشاربين، فاحتسى ما لذَّ له الاحتساء، واستأنف الرقص واللعب حلقاته، فقام يتحامل على نفسه؛ حتى وقف عند كل جماعة، واختلط بكل زمر، وسمع من تراتيل المنشدين ما أثمله وأشجاه، ثم دلف إلى جماعة المتساجلين، وكانوا خليطاً من ثقيف وقريش، فشاقه بيانهم المرتجل على طريقتهم، وراقته العذوبة تسيل بها معانيهم.

صوت من ثقيف:

أيامنا تأتي لها فوجات	**ما أعرف لها خبلاً ومجنونةْ**
واللّي حصل في أيامنا صكات	**تلقى قرون إبليس مقرونةْ**

صوت من قريش:

تقليبها من قَلْبَة النيات	**شِي متباينة وشِي مدفونةْ**
وإذا اخزِيت إبليس نام وبات	**وإذا كسرت النفس ملعونةْ**

وطال تجواله، فنال منه التعب، فاستأنف عودته إلى مكان الميعاد، فافترش الرمل ودار بعينيه إلى ناحية القمر لا يرينُ عنه، وكان قد سفر نصفه وغاب النصف الآخر في غمامة دكناء.

(23)

وتبلَّج الفجر فانفلج معه قَدٌّ ممشوق، يخطر في قوام ناحل، وثوب أبيض ناصع.. ملفَّعاً بخمار طويل الردن، عقد طرفه في رأسها، ونشط حول عنقها، وترك الطرف الآخر يجرجر وراءه صغار الحصا في خشخشة خافتة كأنها وسوسة الحب في شغاف القلب.

وانطلق قائماً يحيّيها ويبسط يده في احتشام لمصافحتها ..فأغرق بصره وجه يشرق بالفتنة.. في سحنة ضامرة أشبه ما تكون بسحنات الشعراء والفلاسفة، ومحيًّا جهار جذَّاب تشعُّ فيه عيون نجل سود الأهداب طوالها، وثغر ينفرج عن بسمة كأنها تعويذة السحر، فترامت نفسه عليها، وأحسَّ بحافز يدفعه إلى أن يطويها بذراعه، وينهال على ثغرها تقبيلاً ولثماً، ولكنه تخاذل وانحلَّت عراه، وبدرت من لسانه فلتة سمعت صوته يتهدج بها :((والله لا أفعل.. وإنه لأخلق لهذا النَّفَس الطاهر أن يتنسم في أجواء نقية لا يشوبها رجس أو حرام)).

صافحت أذنها هذه الظنة، فعلمت أنها صدى هواجس في النفس، ونظرت إليه نظرة طويلة ناعسة، فياضة بالحنان ثابتة، تنطق بمعنى العتب والرثاء والعزم، والإِشفاق والصرامة والودّ في آن واحد، فخالجه من ذلك ما خالجه من خوف، وشعر أنه أمام نظرة زاخرة بمختلف الشجون، وأنه منذ اليوم أمام سريرة تضطرم بأحداث جسام.

وتغافلت هي عمّا بدا على قسمات وجهه من نبوءة، وبادرته الحديث تقول:

–ما أكثر شقوتنا بأنفسنا في هذه الحياة، أترى آلامنا فيها، وأكدارنا ومتاعبنا!.. إنها من وضعنا وضع أيدينا، إننا نعمد دائماً إلى ما ليس في أيدينا،

فنضفي عليه كل محسنات الحياة ومغرياتها، ونجعل منه مثلاً أعلى لما نطمح إليه ونتطلَّع.

ولو عقلنا لاستطعنا أن نفهم أنه ليس فيما يغرينا من هذه المحسِّنات إلاّ ما أضفاه خيالنا الواسع، وما وشَّاه خداع النظرة البعيدة من لمعة وبريق.

يقولون السعادة ..ثم يتطلعون إليها، ويتشوَّقون إلى منالها!! فهل شهدت بربك سعيداً سُرَّ بها واطمأن بنوالها؟

في المسألة إذن أمران: إمّا أننا لا نشعر بما ينالنا منها، أو أننا نشعر، ولكننا لا ننال، وفي الحالين تغرير، وفي كليهما تكليف وتعذيب.

ينزعني نازع إلى التغلغل في أحشاء غابة، أو التصعيد في مسالك جبل شامخ، أو الهيام في شعاب ضالة، وتهفو نفسي إلى ذلك، بما تضفيه من خيال على هذه المتعة، وما هو إلاّ أن أتغلغل في الغابة، وأتفيأ من أدواحها ظلاً وارفاً، أو أصعد في الجبل حتى أنتهي منه إلى القمة، أو أهيم في الشعاب، وأجول بين هضابها ووديانها، ثم أقف هنا أو هناك، لأرى مكان المتعة فأجدها.. ولا أجدها .أجدها في لغة الأرقام والمساحات، لأن ما سلكته إليها كان مقدَّراً بالمتر والسنتيمتر، ولا أجدها ..لأن ما أضفته عليها من لمعة وبريق كان من رتوش الخيال.

وتصافح عينُك لوحاً زيتياً، أبدعه فنان ماهر، فتصافح روضاً أريضاً يتسلسل الماء في حواشيه، وظلاً سجسجاً يُصارِع النور على عشب مخضل أو يعكسه خيوطاً صفراء على جدول رقراق، فتتمنى لو وسعك أن يكون لك في مثل هذا الروض قصر، وكنت تشرف من قصرك على مثل هذا الجمال الممتع.

وليس فيما تمنيت أكثر من أن يواتيك ظرف.. فإذا أنت في النافذة.. وإذا أنت مشغول بخاطر في نفسك عن الأرض والسجسج لا ترى في الخيوط الصفراء والجدول الرقراق أكثر ممّا يراه المزارع في مناظر مَلَّ تكرارها، وسئمت نفسه استقرارها على وتيرة واحدة وشكل واحد!

إذن، فما هي السعادة؟! وأين مكانها من مناحي الحياة؟

إنني شخصياً أرى أنها (رهين تفسيري) بهذا أُعرِّفها ولا أزيد.. أما مكانها فهو في حدودي، وعند متناول يدي.

السعادة.. تصوير وافتراض أكثر منها حقائق مقررة بحيِّز أو حدود.

والسعادة.. أشباح تصطنعها أحلامك، وتضفي على أجسادها العارضة ما يحلو لك من بريق حتى إذا ران الكرى عن أجفانك تقلّص كل أثر لما أضفيت وما وشَّيت.

ما يمنعني إذن أن أفترضها في حدودي، وأضفي عليها في هذا الحدود كل ألوان التلميع، فأنا سعيد بالغنى والثروة، لأنهما قواما الحيثية الوجيهة، وسعيد بغيرهما، لأني في حصانة من جميع المواصفات الثقيلة التي تقتضيها الوجاهة!

وأنا سعيد بتبريزي على لدَّاتي، وسموِّي على مراكزهم، وأنا سعيد بغير ذلك لأني في نجوة ممّا يترتب عليه التبريز والتفوّق من رسميات زائفة؛ تغلني وتمنعني من المتعة الروحية الخالصة.

أنا سعيد بما تحدَّر إليَّ من مجد الآباء، وعراقة أنسابهم.. لأني في المكان المرموق بالتجلَّة والتعظيم، وسعيد بضِعة حسبِي.. لأني أمام فرصة مهيَّأة، لتأسيس مجد أضع لبنته بيدي، وأورِّثه أحفادي.. تِركة غنية بالجاه والحسب.

أنا سعيد بما اكتمل لي من عافية في جسمي، وقوة في بصري، وسعيد بغيرهما.. لأن قوة معنويتي لا تعد لها قوة.. لأن فقدان بصري نعمة حالت دون ما يكدرني في الحياة ويسوؤني.

أنا سعيد بقرب الحبيب ووفائه، وسعيد بهجره وبعد مزاره.. لأني في الهجر أمتحن ثباتي، وفي بعد المزار مندوحة من الاستغراق في عبث ضال ونزق طائش.

(24)

كانت تتحدث وفي لهجتها من طمأنينة العلماء وتركيز ألفاظهم.. ما يبدِّد الأحلام في صباها الفاتن، ومحيّاها الوضَّاء. وفي معانيها من العمق والغزارة.. ما يُلهم الفلسفة ويفتح آفاقها.

وكان سالم يستمع إليها وفي صدره وجيب الضعيف الواهن.. ضعضعه الهوى، وحزَّ في فؤاده الأمل الكاذب. وما انتهت من حديثها، حتى تواثبت الكلمات إلى فمه، وتزاحمت المعاني والصور أمامه فابتدرها يقول:

لا شيء أحفل بالغيظ منكم.. معاشر العقلاء والفلاسفة. تأبون إلاّ أن يكون تعقيبكم على الحياة متسماً بالقسوة والجمود، كأن الحياة جميعها في نظركم، صور مادية بحتة يمضي عليها ما يمضي على أحجار الشطرنج، تنتقل بها يد اللاعب من اليمين، ثم يُحيلها إلى الشمال في الأوضاع التي يراها، والاتجاهات التي يختارها.

ولكنها الحياة أعمق من هذا وأبعد غوراً واتساعاً!!

في الحياة هنَّات لا تخضع لقاعدة، وفيها أشجان لا تعرف المنطق، وفيها أهواء، لا ينتظمها سر واحد.

ألم تسكري مرة في حياتك يا أختاه؟ إذا كنت لم تفعلي.. فانظري إلى أول سكّير يُصادفك، وتعقَّبي بوادره وأفعاله وصور أعماله، لتعرفي أنه لا يلزم أن يكون جميع ما في الحياة عاقلاً يمضي بمضي أذهانكم ويمشي مع أوضاعكم المقررة، وفلسفتكم الجامدة.. إنما الحياة حافلة من وراء هذا بشتات من الصور

والمنازع.. يأتي السكران والهاوي والفنان والعابث والشاعر والمجنون في أولها، وليس في آخرها حد تأتي عنده نهاية.

فقالت:

–أتعني أننا نعبث عبث السكّيرين، ونهيم هيام الشعراء، ونلغي مسكنتنا من المنطق والفهم.. إلغاءها عند المجانين؟

–لست أعني كل هذا إطلاقاً، ولكني أنفي الحذلقة القاسية، وأن نتجاهل الملابسات ولا نقدرها. ليس في المنطق أن يأتي عرش بلقيس في ردَّة الطرف، ولا فيما يخضع للقواعد، أن يعمل الجن لسليمان ما يشاء، من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. ولكنه حدث!

لماذا؟

لأن الحياة أعمق من أن ينظمها سر واحد، أو يحدّها منطق مفهوم، أو قاعدة مطَّردة.

–لا نختلف في هذا. إني أرى رأيك في أنَّ للحياة صوراً وأسراراً أعمق من أن يحدها منطق، كما هو الشأن في عرش بلقيس، وأن فيها ذهنيات ومشاعر وأشجاناً لا تمضي مع القاعدة والعقل. ولكني لا أرى رأيك في المضي بهذه المشاعر إلى النهاية التي يستبيح فيها السكّير والشاعر والعاشق لنفسه إرسالها على سجيتها بدعوى أنه مدفوع بنوازع لا تخضع للعقل والمنطق!

للسكّير استفاقة يصحو فيها، وللشاعر والعاشق والهائم والفنان مثلها. وإذا استفاق حتى المجنون انتظمه منطق الحياة.. فإمّا أن يساير المنطق على أثارة بيّنة، أو يسدر في غيِّه سدارة مَن لا يبالي ما يصنع.

–ألستِ بالأمس تزكّين الجنون في نفسك؟

–ذاك جنون قاله الناس، ولم أقنع بما يقولون، وما علاقتي بما يقول الناس إذا كنت على أثارة بيّنة من نفسي؟ وجنوننا اليوم جنون من يسدر في غيِّه دون إثارة أو منطق.

–افترضيني في رأيك مجنوناً؛ ولا علاقة لي بما تقولين، فإني على بيِّنة من نفسي.

–أنت تخلط منذ اليوم.. لا أجد لنفسي مندوحة للقول ضدك، إذا كنت تملك أثارة مقنعة، وبيِّنة واضحة.. فما بيّنتُك فيما تختار؟ ما بيِّنتُك في أن تسدر في هذا الغي، وتمضي مع أهوائك وأشجانك مضي السَّكران؟ ما يمنعك أن تصحو مرة، تعود فيها إلى منطقك؛ لتوفِّق بين ما تسدر فيه وبين ما يتفق ومنطق الحياة!؟

أنا لا أقلوك، ولكنه يساورني في شأنك ما يساورني، ولقد فكرت في أمرك طويلاً، فوجدتك تتشوَّف إلى متعة تضفي عليها كل ما يضفي خيالك من لمعة وبريق، وإنك في سبيل ذلك تودي بنفسك وأختك في مهالك لا قرار لها ولا حدود!

–لعلّه لا يساورك فيما يساورك .أنني أخون الولاء، أو أدنِّس الحب، وأتنزل إلى دركات العابثين، وأطيع فيك منزعاً فاسداً، أو هوى خبيثاً؟

–أنت عفٌّ في نظري إلى حد لا أرتاب فيه.. إلاّ إذا جاز لي أن أرتاب في أخي، ولكنك ضعيف القلب، لا تملك هواك!!

–أتعنين بهذا أن قواي تخونني في حفظ ولائك، وهواي يقودني إلى منزع فاسد؟

–ليت كل ما أخافه هذا –إذن لطمْأنتُ نفسي– فإن في ثقتي بها حصافة، دونها خرط القتاد، ولكن الأمر أعقد من هذا، وأعصى منه على الحل.. أنت يا صديقي أب لأطفال هم أحوج الناس إلى عنايتك، وزوج لامرأة لا يدري إلاّ الله كم تعاني في سبيل هيامك العابث. فعد إلى أحضان زوجك، وقم على عيالك قيام الرجل الشريف لا يثنيه النزق، ولا تعصف بقلبه عواصف الهوى العابث، والتجنّي الطائش.

قالت هذا ثم أومأت إليه إيماءة خفيفة تستطلع فيها رأيه فيما ذهبت، وتستنطق حجته فيما يرى، لكنه كان قد ارتبك، وضاعت عليه مذاهب القول، وشاع في وجهه على خديه اصفرار المرضى وذبولهم.

انطلقت مخيلته انطلاق الشاعرية الهائمة، تبحث عن كلمة يصوغها، أو جملة يبهمها، أو رأي يعالج به موقفها الحازم، فلم ترجع إليه بطائل، ولم تسعفه بحرف واحد يلفظه.. فتضعضع وتخاذلت قواه، وتراءت له شواهد الفراق مبثوثة حوله، فأجهشت مآقيه، وأحس بدمعة تطفر بين أهدابه، فمال بعينيه على كتفه يمحو أثرها أن تنم عليه!

فاقتربت منه في حشمة، ومرَّت بيدها على رأسه في حنان واضح، وقالت :ناشدتك الله ثم الأبوة البارَّة بولدك، ورباط الزوجية الذي يربطك بأهلك إلاّ ما أعرتني عقلك، وعلمك، وحكمتك ساعة واحدة.. ألست تعيب

في الرجل العادي نزقه وضعف نفسه، وتخاذله عن قيادها إلى السبيل السويّ؟..
فما بالك به وهو في مثل حجاك وعلمك وسمو تفكيرك؟؟

إنني أجلُّك عن خداع نفسك وإيرادها موارد الهلاك، وأنت من أعرفُ عقلاً واتِّزاناً وتفكيراً.. عد يا صاحبي إلى نعيم بيتك، وتمتع برغيف طازج على خوانك بين صِبيتك، ودعني بعيداً عنك أطوي نفسي على صداقتك الخالصة، وذكرك الجميل، وثق أنني ما نأيت أحفظ للجميل، وأحفل بذكرياته الخالدة.

(25)

زلفت الشمس في مداجها من صفحة الأفق، وترامى إشعاعها على أكناف الجبال ومنحدرات الوهاد، ثم مشت أشعتها في مسالكها من الأرض، حتى افترشت السهل المنبسط على سِعته.

وكانا في غمرة من النجوى والشجون، لم يستيقظا منها إلاّ على حرارة الشمس وقد غمرتهما وأشاعت في جسميهما وقدَتها.. فانطلقا يعبُران أطراف السهل ممّا يحاذي ضلوع الجبل، ويبعدان ما أمكنهما عن بيوت الشعر المكتظة بالأضياف في سرة الوادي، حتى إذا استوى أمامهما الطريق الخلفي الذي سلكه في جيئته بالأمس، استويا معه، ومضيا يمشيان فيه متجاورين بأجسامهما، متباعدين بما غشي على نفسيهما، وضغط على روحيها.

كانت ((فكرة)) تمشي ورأسها مطرق.. في هيئة المفكر المستاء، وخصلتان من شعرها الفاحم تتراءيان من وراء دثارها الشفاف، وهما متهدلتان على كتفيها الجميلتين، وكان سالم خلفها يتابعها ويداه مضمومتان خلفه وإغراقة من الذهول شائعة في وجهه، وسيال من الخوف يغشى محيّاه، ويضغط على أنفاسه، فيبدو في تهالكه، وتخاذل أقدامه، وما ران على وجهه من الذبول.. كأنه مومياء من عاديات الفراعنة انبعثت تجوس خلال الديار وتمشي بين فدافدها.

ومضى بهما الطريق في خط يستقيم مرة، ويتعرّج أخرى، وينحني كلّما صادفتهما غياض أو بساتين.. وكان أزيز السواقي وخرير مياهها في البرك الصغيرة.. يشيع في الجو موسيقية عذبة الألحان، جميلة الأنغام، وكان

عبير الأزاهير يتضوَّع بين أفواه الشعاب ..فيفعم الوادي أريجاً شذيَّ العطر، جميل الرائحة.

هبط الطريق بهما إلى وهدة انبجس من شقوقها ماء زلال عذب، فأطفآ وقدتهما من ينبوعه، وتفيآ بجانب أيكة باسقة من أشجار السوسن ..تكتنفهما مروج مخضلة يانعة، ويحفُّ بها نبت مفوَّف الأزهار، يتماوج كلما هفهف النسيم عليلاً رخياً.. ومسَّهما الجوع، وكانا لم يطعما من ليلتهما، فعمدت إلى رغيف كانت تحتفظ به في ثيابها وقطع من الجبن؛ والمربى فأكلا، ثم نثرا ما بقي من فضيلات إلى العصافير، ثم قَدِمَا إلى الغدير فنهلا منه ماءً نميراً، وغدوا إلى مكانهما من الأريكة تنعشهما طراوة الهواء، وتفتح ما غلق من نفوسهما وضغط على أرواحهما.

وترقرق ماء الحياة في محيّا ((فكرة)) وعاد بريقه وإيناسه، وهدأت أعصاب سالم، وأشرق وجهه بالصفاء وانشرح قلبه، وتفتَّحت نفسه للكلام فقال:

–كلّما فكرت في أنَّ الإنسان هو الإِنسان.. مهما سما به رجحان عقله، وصفاء ذهنه وفهمه للأمور، داخلني من ذلك غيظ شديد، وتمنيت لو عصفت بالأرض عاصفة جاءت على كل العقول الراجحة والأذهان الصافية، فلم تترك على وجهها إلاّ الغفل من خشاش الناس، وإلاّ السذّج من بسطائهم ودهمائهم.. ليخلدوا إلى طبائعهم الأولى.. لا تنغِّصهم عنجهية مفكر، ويستنيموا إلى جهلهم وبساطتهم.. لا يكدرها عليهم قوّال يصوغ الحكمة ولا يعنيها.

ما أكثر الذين يعيبون على الناس أوضاعهم، ويسخرون من تصرفاتهم حتى إذا استوى لهم مقام ترفّعوا ترفُّع المدل بنفسه، واعتزوا اعتزاز الغني عن غيره، وظلوا في تصعيدهم لا ينظرون إلى مستوى الناس دونهم إلاّ ليزرروهم، ولا يتفضلون عليهم بالكلمة أو الموعظة إلاّ ليهزّئوهم ويُحرجوهم بها.. كذلك دأب أختي معي أول ما استوى مقامها في قلبي وسما مكانها في نظري..

وقالت وقد بان الاستياء في وجهها:

–أنا لا أكره فيك شيئاً.. إلاّ هذا التلبيس على نفسك ومخادعتها.. يقول علماء التحليل النفسي: إن الإنسان البسيط قبل أن يتوقَّد ذكاؤه، لا يعرف لأعماله الخاصة غرضاً خاصاً، فهو يتخبَّط فيها كيفما اتفق، ويمضي في جُدَدِها وراء أول سراب يلمع له، ثم لا يلبث أن يندمج فيما مضى، ويملأ مشاعره حتى يقتنع بفخامته وجلاله، ويلبس على نفسه ما شاء له التلبيس والإقناع.

هذا الإنسان البسيط لا يستطيع أن ينظر نظرة هادئة عميقة، يحدد بها نتائج أغراضه، ولا يملك من القوة والثبات؛ ما يكبح به أهواءه إذا ضل بها الوهم.. هذا الإِنسان خليق بأن يعيش شقيًّا بأعصابه؛ رهين الغلطة الأولى!..

قال وقد شرعت نبرات صوته تبين في وضوح أكثر من ذي قبل:

–مرت بنا دُمىً كثيرة في الحياة، تعيش بنظرياتها أكثر ممّا تعيش بقلوبها، وتخوض في مسائل من العلم أكثر ممّا تنظر في نفوسها، ولطالما قلنا مراراً: يا أيتها الدُّمى الفارغة من كل مرهفات الحس.. ليست الحياة جميعها نظريات جافة تحلِّلونها، وليس العالم كله كتلاً من خشب تسنده رافعاتكم وتحرِّكه آلاتكم.

–وليسوا كذلك أطفالاً يهدهدون أنفسهم، وتلوح لهم قطع الحلوى؛ فينهالون عليها في أعصاب محلولة، ولعاب سائل!

–سترين أنني أكبر من طفل عندما أزدرد لعابي أصوم عمّا تتبعه نفسي، وأحتسب جهادي لكرامتي.

–وتحتسبه كذلك لأولادك وزوجتك.. فإنهم سعداء وخصصت لهم، وسأظل على الوفاء لأخوّتك ما رجع في صدري نفَس.

ومد يده يصافحها في حساسية حادة، وعصب موتور، ودمعة حائرة عزَّ عليها أن تطفر.. فجمدت في مكانها في المآقي، فشدَّت على يده بعزم المتهالك، وضغطت على كفه كأنها تطبعها بخاتم الوداع، ثم سحبتها في حنان وود، وولّته ظهرها مصعدة إلى حفافي الوهدة، ثم انطلقت تغِذُّ السير في رأس منكَّسة، وطرف كسير لا يرينُ عن مواضع قدميها.

(26)

قضي الأمر، واختفى من عينيه آخر إشعاع كان يشرق في وجهه، فظل في مكانه جامداً، ثم انطلق بغتة يغدو إلى الحافة حتى انتهى إلى مستواها.. غذَّ بصره في أحشاء الوادي، فلمحها تختفي بين أدواج عالية من العرعر، ثم تنحدر في جرف من أجراف السيل، فندت منه صرخة عالية أمَّل أن تبلغها.. لكنها كانت قد اختفت تماماً، وحال الوادي، بسهوله ومرتفعاته وأدواحه بينهما.. فارتمى في مكانه واستسلم لجفونه وشجونه.

ومرَّت به سيارة من ((جمّالة)) الفواكه.. حسبوه أول ما رأوه مريضاً، فاستوقفوا عِيرهم، ودلفوا إليه يعنون بشأنه، وانطلق بعضهم إلى الغدير، فملأ بعض صحافه ثم عاد إليه ينضح الماء على وجهه، وأعانه البعض الآخر على القيام.. فوقف يتحامل على نفسه، ولكنه لم يحر جواباً، ولم يبدر منه حرف يدل على ما يشكو.

ولاح لهم أنه من غير هذا الحي، وبدت لهم سيما الحضر واضحة في هيئته.. فعرضوا عليه أن يصحبهم إلى الطائف.. إذا كان من أهلها، فأومأ برأسه علامة القبول، وأناخوا بعيراً من جِمالهم، فامتطاه في إعياء أنهكت له مفاصله، والتاح له فؤاده.

قضى ليله وزُلَفاً من الليل في حال من التململ والقلق.. كان مبلبل الخاطر مضطرب الحواس، يستنشق النسيم المعطر بعبيق النبات المزهر، على سيف الوادي، وبين ثنايا المنخفضات فلا يستروح له أريجاً، وتنفسح أمامه حواشي الوادي مطرزة بالخضرة اليانعة، فيغلق فؤاده دونها ولا تتفتَّح نفسه لها.

وأناخت العير عند صخور قائمة على جانب من الطريق، تنحل منها أرض فسيحة الرقعة في جانب، وتزدلف منها في جانب آخر وهدة تصطفق فيها مياه عميقة من مخلَّفات السيول والأمطار، فدلف سالم إلى حافَّتها ونضا عن ثيابه وألقى بنفسه بين أحضانها مدة كانت كافية لتلطف حرارته وانتعاش فؤاده.

وفجأة خطرت له خاطرة جديدة ترك على إثرها الماء وخفَّ ثيابه فلبسها، وإلى رفاقه من القافلة فاعتذر لهم باستحالة مضيِّه معهم، ثم عرج في سبيل آخر، مصعداً في مسالك وعرة.. انتهى منها إلى منحدر يلوي بلية الجبل، ويستقر باستقراره في رقاع فسيحة تكتنفها غياض وبساتين.

استوى به السبيل الآن في نفس الطريق التي جاء منها في الأيام التي تعرّف فيها إلى ((فكرة)) .فهذه الرابية التي اختبأ فيها بين النعاج يوم المطر، وهذا بستان العجوز التي احتفت به على أثر الصدمة التي نالته، وهذا الفيء الذي يتراءى من بُعد تحت الأغصان المتشابكة، كان مقعده يوم أرسلت العجوز في طلب ((فكرة)) لتؤانسه وهي لا تعلم عن علاقتها به شيئاً.

ومن هذا الطريق، يستطيع إذا دار مع استدارة المسيل، ومضى بمضيه بين ليات الجبال.. أن يستوي مرة أخرى في البقعة التي صادفها فيها أول ما صادفها، وينعم بذكريات جميلة، مرت به ليلة أن لاذا بالكهف يختبئان فيه من هطول الأمطار، واجتمعا في صبيحتها بالراعي، ثم ارتقيا كتف الرابية ليبيتا ليلة أخرى مفعمة بأشجان الحديث وأفانين الرأي.

وغذَّ في سيره تطيف برأسه الذكريات، كما تطيف الأحلام برأس النائم، ويطغى على نفسه الشجون كما تطغى على الكثيب الهموم.. وسارت به الجادة

تلتوي بليات المسيل في ليل نشرت ذوائبه، وتفتحت آفاقه عن نجوم متناثرة.. تخبو وتتلألأ، وترسل إشعاعاً خافتاً لا يكاد يبين الطريق من ثناياه، إلاّ كما يبين من خلال ذبالة ضئيلة رقيقة الحاشية.

وأشرق الفجر على الأفق الفسيح.. حين أطلَّ عليه الجبل الذي باتا ليلتها على كتفه شامخ الذرا، ثابت الأركان، وتراءى له فكان الكهف الذي أظلهما في أول ليلة صادفها واتقيا به من المطر. وكانت قد تثاقلت خطاه، واختلجت ممّا ناله من التعب، وأحسَّ أنه يترنح ترنح المخمور، فمال إلى أول شرف صادفه، واستلقى منطرحاً على الأرض في أنفاسٍ متقطعة وجسمٍ منهوك.

(27)

تعالى النهار، وارتفعت الشمس في مدارها من الأفق صاحية، وافترشت أشعتها الحقول والمروج، وانسابت بين أشجار السوسن.. متجهة إلى الشرف الذي ينطرح فوقه، فانبعث من نومه متأثراً بوهجها ووقدتها واستأنف سيره بين مماشي الغياض، حتى انتهى إلى الصخرة النائية فوق حافة الوادي.. حيث جلس وإيّاها مع الراعي، يوم كانت تحدثهما عن عادات الخطبة والزواج، وما يسلس له قيادنا من تقاليدهما، فوقف يقلب نظره في كل وجه من الصخرة.

هنا جلست ((فكرة)) .. وهنا نقرت بأصابعها ودقت بيدها، ومن هذا الطريق أخذت دربها.. في اللحظة التي تركته مع الراعي لتصعد في الجبل! ومضى يصعد خلفها ووثبات الغزال تتراءى بين عينيه كأنها شيء حقيقي، يتواثب أمامه بين الحجارة والصخور في مسالك الجبل !وانتهى إلى ما انتهيا إليه ليلة أن باتا على كتف الجبل، فإذا الصخور صامتة، والمكان موحش، والريح السافية تهب شديدة طاغية. ونظر فإذا النتوء البارز من أضلاع الجبل تتوسده عروق صفراء، وتكسوه أوراق جافة وأطل من حافته على مروج الوادي وغياضه وغدرانه.. فإذا صورة خامدة لا تنبض فيها حياة، باهتة لا يشع فيها جمال.

واستقلته رعدة فاضطربت حواسه، ورجف قلبه، وأحس بدمعة تطفر من مآقيه فتجلَّد، وملك جأشه ومضى يذرع الأرض في خطوات بطيئة ثقيلة يقف فيها عند كل حجر، وفي كل فجوة وعلى رأس كل مسرب!

أيُّها الجماد.. فيمَ هذا الصمت الكئيب، والوحشة الخرساء؟! أيعنيك من ((فكرة)) ما يعنيني؟؟ إنها تذهب في غير عودة، وتتركني في غير أمل.. فإذا ما دعاها داعٍ من الشوق، أو هفا بها ما يهفو بي من نزق للمرور بك فوطِّيء نفسك لخطراتها، واحْنِ على مواضع أقدامها!

وأنت أيّها الريح السافي.. إذا ما صادفتك ترود هذه المعالم.. فترفَّق في هبوبك، وخفِّف من غضبك، ورتِّل على مسامعها، في أناة وخفوت، ما تسمعه يختلج في صدري من لواعج الحب، وما تراه يترقرق في محاجري من أمارات الألم، وما تقرأه في ملامحي من علامات الوفاء للحب الضائع والأمل الذاوي!!

قال هذا.. ثم دلف عائداً إلى المنحدر، وانكفأ يهبط بين الصخور حتى استوى باستواء الوادي، ثم مضى بمضي الجادة على حوافي الغياض حتى انتهى إلى الصخرة التي صادفها عليها أول ما صادفها.. فوقف تلج به العواطف، ثم ترنح كما يترنح المخمور.. لعبت برأسه الخمرة، وخطا نحوها، ثم تراجع، ثم خطا وتراجع، ثم دار حولها يتصفحها من كل وجه ولا يدانيها، ثم مضى في طريقه، وقد سحَّت من جفنه دمعة، وندَّت من صدره زفرة.

وانتهى بعدها إلى الكهف الذي اتّقيا به المطر، في أول ليلة تفارقا.. هنا شدَّت من ذراعه، واجتذبته إلى ما هيأ لها من مكان في الكهف.. وفي هذه الزاوية وطَّأت له من الحشائش الجافة فراشاً وثيراً، ومن هذه الأحجار اتَّخذت موقدها تضرم النار فيه، وتنضج له شواءً طازجاً لذيذاً.

وغمرته الذكريات فهاجت شجونه، وطوَّحت أفكاره، فخيل إليه أنها إلى جانبه تدني إليه فنجان القهوة، يطفو عليها الحباب، وشعر بنكهتها اللذيذة في

فمه، وسمع صوتها يناديه :((إني بنت هذه الجبال العاتية درجت في وعورها، واكتسبت من صلابتها.. ستجدني أبرز للند وأقابل الكفء أجزيه عن مروءته فضلاً وعن خسته مراً، ولست بالمرتابة فيك وقد شهدت نبلك، ولا الخائفة من استدراجك ولو كنت الشيطان))!!

ورأى نفسه يجيب على ما يسمع :((إنني أخاف هذا العتوّ، وترعدني المبارزة ولا أجدني اليوم بعد أن ذهلت وانحلّت مشاعري أقوى حتى على الكلمة الحادرة والنظرة العابرة)).

وأدركه الوهن، وانثالت على رأسه الخواطر متشعبة متضادة، واطَّرد به التفكير فذكر أهله وأولاده، وذكر عبثه بحقوقهم وتجنيه عليهم بهذا النزق، الذي لا يصدر عن غير طائش أغواه هوى ضال، وأعمته آمال ضائعة لا يرجو عندها نهاية.

وقال في نفسه :لقد كان أخلق بي أن أحتقر هذا التشبب، وأنفض يدي من أدرانه وأوصابه. وليكن ما يكون!! إنه لا يفل الحديد إلاّ الحديد، ولا يثني عن الطيش إلاّ عزمة جبارة ووثبة قوية ثابتة.

ما علاقتي بامرأة ضالة بأفكارها، عابثة بالمجتمع؟. أهو الجمال أم الجاذبية، أم الفتنة؟ كل هذا هراء إذا قيس بما أتحمله من علل تذويني، وأدواء تضويني، ونزق يزري بكرامتي كرجل، ويعبث بمروءتي كرب أسرة ووالد أطفال.

لأضع حداً لكل هذا ابتداءً من ساعتي.

وسأرى أي رجل أنا!!!

وقام من توّه.. كمن نشط من عقال، ونفض ثوبه فنفض معه ضعفه وآلامه ونزوات نفسه. ودار على عقبه، فاستوى في الطريق يمشي مشية رجل جديد لا علاقة له بأمس الدابر!!

(28)

قالت زوجته تحدِّث جارة لها:

–ما رأيت، كنزوات النفس، سراً يغلق على الفهم ويستعصي على التفكير!

مضت على سالم زوجي أيام تقطعت فيها أسبابه بنا، وتعلَّقت بصور فيها كثير من الخيال الشعري، طوَّفت به في مجاهل من الجبال والقفار والأودية الضالة ما شاء له التطويف. وفجأة انطفأت رقدة هذه النزوة وعاد إلينا كما كان، وأفضل ممّا كان رجولة واستقامة وأخلاقاً!

ما حاولت قط في نزوته أن أشغل نفسي بالهواء الذي يدعونه نصحاً لأثنيه عن شيء مَلَكَ حواسه، وسيطر على مشاعره؛ لأني كنت أسمو به عن الألفاظ الثقيلة والمعاني الفجة التي ينمقها الناصحون في العادة تنميقاً لا يراعون فيه أسرار النفس وفك مغاليقها.

كنت عاجزة عن أن أتصل بنفسه، وأتعرف إلى خلجاته تعرُّف الآسي يتفحص المرض ويتفهم الدواء، فرأيت أنني بإقحامي نفسي فيه أوصل الداء، وأستثير ضدي عواطفه، وأمهد له بالعصيان والجموح.

لهذا تركته يمدر فيما سدر.. آملة أن أتفحص حقيقة النزوة فيه، توطئة لمواساته عن فهم وتحقيق، فإذا النزوة تنكفىء ولمّا أبلغ سرها، وإذا الجذوة تنطفئ ولمَّا تبلُغ ذروتها.

ذلك لأن لأسرار النفس خلجات مغلقة تستعصي على الفهم والتبصر. ولأن رحمة الله أقرب إلى عباده المخلصين.

(29)

ومضت شهور الصيف بسالم في أجمل ما تمضي بالمصيفين في الطائف.. بلدة الهواء والماء، وانقشعت كآبة كانت تغلق على صدره، وتضغط على فؤاده، وتفتَّحت نفسه للحياة، فاستحالت صورته الكاسفة، ومحياها الضامر إلى صورة ومحيا آخر تشع فيه معاني السعادة والغبطة.

كان يمضي بكر أيامه في نافذته المطلة على السهل المنبسط أمامه، تترقرق في حواشيه النسمات الرقيقة، وكان يشرف في جلوسه على مروج وزروع تكتنف السهل في بعض جنباته، وتتخلله في جنبات أخرى، وأصوات العصافير والنغاري تشقشق في الجو الحالم، وتصفق أجنحتها حول شجرة من أشجار الكمثرى ..تترامى فروعها بالقرب من نافذته.

وكان إذا تعالى النهار، وبدأ وهج الشمس يتخلل نافذته، قام إلى مكتبه في الغرفة المجاورة، وفضَّ رسائل بريده، وتناول ملفه فأودع فيه ما لزم إيداعه، ثم بدأ يحرر أجوبته إلى وكيله في مكة، أو عملائه في الملحقات بتصريف ما يلزم تصريفه من بضائعه، وطلب ما يلزم طلبه من الأصناف التي يشتغل بتوريدها.

وكان يغدو عليه في كل أمسية نفر من رفاقه فيخرج معهم للاستراضة في العقيق يصعدون في كثبانه الصغيرة ليشرفوا منها على أحشاء الوادي، أو ينحدرون في مدارجه ليتمتعوا برماله الناعمة في أعماقه، أو يرودون البساتين ليتخللوا أشجارها الفينانة، ويجنون ثمار الخوخ والتين، ثم يفترشون حوافي البرك ليطعموا ما جنوا، ويخوضون بأرجلهم في مياهها الصافية.

وفي بعض المرات، كانوا يدعون البستاني ليحمل إليهم من ثمار البستان ما يدفعون ثمنه بالسعر الزهيد، أو يصحبون خادمهم على رأسه (سموار) الشاي وآنيته، إلى حيث يجهزه لهم تحت عريش من أعراش العنب، أو غصن فينان من أغصان السفرجل.

ويظلون في استراضتهم هذه ونزعتهم، إلى أن يودِّعوا شمس المغيب وراء الجبال الباسقة في الأطراف البعيدة من الوادي.

(30)

بدت طلائع الشتاء فتعرَّت الأشجار ممّا كان يكسوها من الأوراق، وبدأت تنفح الجو نسمات باردة ثقيلة، فبدأت أرتال المصيفين تغادر الطائف، إلى مكة أو جدة، أو غيرهما من مدن الحجاز.

وشدَّ سالم رحاله مع المسافرين واستوى في بيته في مكة، وعادت سيرته في متجره وأعماله الخاصة إلى ما كانت.. إلاّ وميضاً خفيفاً من الذكريات كان يومض في نفسه بين آونة وأخرى، فيشعر من جرائه بضغط ثقيل على صدره، وحرقة أليمة في فؤاده، لا يلبث بعدها أن يسرّي عن نفسه بما يشغله ويغمر مخيلته بالشؤون المهمة التي تحوطه، وتعود سيرته من صفاء الخاطر وجمال الحياة.

وحلَّ موسم الحج، فضاقت مكة بوفودها من الأصقاع، وازدحمت طرقاتها بهم.. وجاء يوم التروية، فعجَّ الطريق إلى عرفات بأبواق السيارات الضخمة تنقل الحجيج.. وازدحمت وديانه وحواشيه بالجمال المتقاطرة تحمل ركابها في (الشقادف) أو على الرحل، وانتظم سهل عرفات المترامي خياماً لا يوفيها حصر؛ تتشابك حبالها، وتندغم أطنافها أو تنفرج بما يشبه العرصات؛ فيتكتل الحجاج في ظلالها متبتلين خاشعين متجهة نفوسهم إلى الله المنفرد بملكوته، العظيم بقدرته، العفو بفضله:

ربنا ما خلقت هذا باطلاً.. سبحانك!!

آذنت الشمس بغروبها فبدأ الحجيج يقوِّض خيامه، وبدأ المفيضون من عرفات تدلج قوافلهم وسياراتهم في خيوط يفرغ بعضها مع بعض، كأنها حلقات السلسلة تكاد لا تعرف لبداءتها أولاً ولا لنهايتها آخراً.

وأفاض سالم فيمن أفاض تاركاً خيمة رفاقه لهم يقوِّضونها ويعنون بترحيلها، ومضى يمتع روحه بالإِدلاج راجلاً في غمرة المفيضين.. وسحَّت السماء بمدرار هتون، فجأرت الأصوات وتجاوبت أصداؤها من الجبل إلى الجبل، وهرولت قوافل الجمال تزاحم بعضها، ومد الراجلون خطاهم يسبقون الهتون إلى منجى في ظلال (الشقادف)، أو أحمال الخيام، وفاض الوادي بعراة الهجانة من مختلف القبائل العربية يحثون مطيهم خفافاً إلى بطن عرنة.

وأحس سالم بطرفة عصا تلامس رأسه في رشاقة.. فالتفت ليرى لثاماً يستدير في نصف هلال على وجه يشرق بالجمال وتنطق عيناه بالسحر.. إنها إشراقة ((فكرة))(، وإنه محيّاها وقسماتها وعيناها المتألقتان.

رآها تشد زمام ناقتها، وسمعها تحييه، فقفز فؤاده إلى صدره وارتاشت جوانحه وخانه النطق.. فلم يزد أن أشار إليها بإيماءة انثالت فيها آلامه وطغت عليها شجونه.

وأشارت إليه أن يشاركها الركوب.. فكان أسرع من كلماتها إلى عنق الناقة! ثم إلى مستوى الرحل منها، وكانت أخف منه إلى الرديف خلف الرحل. وما استويا حتى أرخيا للناقة زمامها، وتركاها تمد خطاها وتزدلف في غمرة النوق بين الأعراب المزدلفين!

وبدأته الحديث بالسؤال عن حاله، فكان يوجز القول استقراراً لجأشه، حتى عاد إليه هدوؤه، واطمأن وجيبه، شرع يسألها عن أحوالها ويجيب في إسهاب عما توجهه إليه من حديث.

وانتهيا إلى منازل البدو في مزدلفة، فجمعا بين المغربين، وقاما إلى حصواتهما يلتقطانها ثم عمدت ((فكرة)) إلى مبرك الناقة، فارتفقت ركبتها وأرسلت بصرها يسبح في هذا الخضم المائج بمئات الألوف من الحجيج يزدحم بهم مسيل الوادي حول المشعر الحرام.

وأقبل عليها وفي كفه حفنة ممّا جمع من الحصا وقال، وهو يشير إلى حصوة منها جعلها بين سبابته وإبهامه:

–ألا ترين أن شعائر الإِسلام ترمز في كثير من نواحيها إلى معانٍ غزيرة، يغلق سرها على غير ذوي البصيرة من أصحاب العقول الراجحة؟

–لا أرتاب في هذا.. وشد ما يحزُّ في نفسي أن يدَّعي العلم بالدِّين بعض مَن تبلَّدت أذهانهم بالحشو الذي توارثوه دون أثارة من عقل تعينهم على التعمق في مسائل الدِّين وفهم أسرارها.. ولكنه كان بودي معرفة الجامع بين بحثنا وما نحن فيه!

–أريد أن أقول إن المعنى العميق في تكريم الجندي المجهول.. عند أرقى الأمم، يتجلّى بأوضح معانيه في تحقير الشيطان بالصورة التي رسمها الإِسلام من ثلاثة عشر قرناً خلت.

الأمم الراقية تكرّم الجندية بباقة من الورد، تضعها على قبر الجندي المجهول، رمزاً لاحترام فكرة الجندية –والإِسلام يهتدي إلى هذا المعنى الغزير قبلهم، فيرسم لمعتنقيه فكرة تحقير الشيطان، في بضع حصوات يرجم بها نصباً شاخصاً.. كرمز للشيطان –وهو في ذلك يشير إلى إهانة شأنه وإذلاله.

–لا جرم أنها حقيقة ترمز إلى فكرة سامية في البحث، ولا جرم أن الإِنسان جميعه، حقائق ترمز إلى مثل هذه المعاني!

(31)

ومشت طلائع الصباح في صفحة الأفق خيوطاً حمراء، وانعكست أشعتها برّاقة متلألئة على قمم الجبال في جنبات وادي مزدلفة، وبدأ ضجيج المزدلفين يستأنف حركته بعد هدأة الليل الأخيرة، وبدأت قوافل الحجاج تتقاطر مولية وجهها نحو منى، وأرتال السيارات تتعاقب مدوية أبواقها في الفضاء، وبدأ القوم من رفاق ((فكرة)) يعدون رحالهم استعداداً للازدلاف إلى منى.

عندئذ مالت ((فكرة)) على أذن سالم، وأسرَّت إليه في صوت يشبه الهجس الخافت وقالت:

–لعلّك تذكر أنني، فيما حدثتك عن نشأتي، أخبرك أن في إطلاق كلمة أبي، على فقيه القرية العجوز الذي رباني.. شيئاً من التجاوز، وأن همسة من الشك تساور بعض النفوس في قريتنا فيما له علاقة بمولدي، ولعلّه فاتني أن أخبرك، أن عجوزاً في القرية أسرَّت إلى صاحبة لي، بأنها ترجِّح أن عائلتي من مكة، وأنني وُجدت متروكة في قيعة من الأرض، في طريق القوافل المارة من مكة إلى الطائف!!

وأزيدك اليوم، أنني التقيت مصادفة بسيدة في عرفة من عائلات مكة، وأنها ذكرت لي أنها تعرف عائلة تفقَّدت ابنتها في الثانية من سنها في طريق القوافل إلى الطائف، وقد ذكرت لي عنوانها في مكة، وطلبت إليَّ أن أوافيها في منزلها في مكة، لتجمعني بهم، لعلّنا نجد في الظروف والأدلة التي تحيط بالحادث، ما نتعرف منه حقيقة الأمر.. فما الذي تراه في هذا؟ وأية فكرة تشير بها عليّ؟

أنِس سالم لحديثها، وعاطفة غريبة لا يفهم سرها، تتجاوب بين حناياه.. كان يشعر أن كلماتها تتفتَّح لها نفسه، وأن ناحية مظلمة فيه تشرق لحديثها، ورأى نفسه يضع كلتا يديه على رأسها، ويطبع عليه قبلته، ثم يربت على كتفها ويشجعها ويرجو لها أطيب التمنيات.

واستوى أصحاب ((فكرة)) على رحالهم، وصاح صائحهم بها فأناخت ناقتها وهي تميل إليه هامسة في أذنه:

–ستراني بعد هذا مخطوبة إلى من تسرك مزاياه، فكن واقعياً أكثر ممّا يجب، وأبقِ على إخائي.. إبقاءك على الوفاء لزوجك وولدك!!

ولم تمهله لتسمع إجابته.. بل كانت أسرع إلى مكانها من الرديف، ثم أشارت إليه أن يمتطي الرحل، فأبى عليها وشرع يُبدي اعتذاره عن استئناف السير معها بحجة أن له رفاقاً لا بد من البحث عن مكانهم في مزدلفة. ومدت يدها تودِّعه فوضع فيها يداً متخاذلة وأشفعها بكلمة فاترة لم تُطاوعه حروفها على النطق، ثم تركها تدلج في عير قومها، وتختلط بغمرة المزدلفين وزحامهم.

جمد في مكانه كما تجمد الصخرة في معترض السيل، لا يحس بنفسه، ولا يشعر بالزحام الذي يصطفق، والجماهير المتدفقة حوله تدفق السيول في مدارج الوديان.. لم يكن يعنيه زملاء ضائعون، وليس عليه ما يلزمه البحث عنهم، كما ادّعى أمامها، وإنما كان يعنيه ثورة مبهمة اضطرمت في نفسه، ووقدة من الحمّى اشتعلت في جسمه، وخفقة من الاضطراب، مشت في جوانحه اهتز لها كيانه، وتخبطت فيها حواسه.

–إنها تزف إليه بشرى خطوبتها ممّن تسره مزاياه، وإنها بعد هذا تريده أن يكون واقعياً أكثر ممّا يجب!.. وأن يُبقي على إخائها إبقاءه على الوفاء لزوجه وولده!! إنها خطوة جبار لا تعنيه شجون النفس، ورقّة الحساسية، ونبل العاطفة بقدر ما يعنيه الواقع.

أي واقع هذا يتجنى على سعادة الغير ويصادر هناءتهم، ويضغط على مَواطن الإِحساس من قلوبهم ويدوس بأقدامه العريضة على أفئدتهم.. ثم يتركها وليس فيها نأمة تنبض بالحياة؟! إنه واقع جلف جبار تأباه الأرض، وينكره مَن فيها!

واستولى عليه الوهن، وعاودته نكسة القلب، وشعر بضغط شديد في صدره؛ فتخاذلت رجلاه، وسقط في مكانه من الأرض هامد الجسم فاقد الحركة!

ولم يثب إلى نفسه إلاّ بعد لأي، فعجب لهذه النزوة من نزوات الشيطان.. كيف تستأنف سيرتها معه.. بعد أن نفض يده من كل ما له علاقة بضعف القلب ووهنه، وبعد أن آلى أن يحتقر العبث، ويعيش قوياً بنفسه سعيداً بزوجه وولده؟!

ومضى في طريق المزدلفين وهو يقول في نفسه:

–ليس في مثل هذه النكسات إلاَّ النزق الذي لا يليق برجل يحترم كرامته.. وليس في ((فكرة)) ما يعدو الإِخاء الصادق والود البريء، ولا في تصرفاتها ما تؤاخذ عليه كفتاة نبيلة تنظر بعين الواقع إلى علاقتي بها كزوج لأم أطفال.

الخاتمة

في شارع يلتوي بالتواء أحد الشعاب في مكة، قامت دار آل عامر سامقة الذرا.. عريضة الأكناف، تنعقد بين يديها دكتان واسعتان، كانتا فيما سلف من مجدها مجلس الخدم من أتباع البيت ومواليه. ويمضي بك في مدخل الدار، دهليز رحب الجنبات، يُسْلِمك إلى سلَّم عريض.. يشعرك بوجاهة البيت وعظمة من سلف من أصحابه وبُناته.

دلفت ((فكرة)) إلى صدر الدهليز، ثم رقت درجاته.. تتقدمها سيدة تتَّئد خطاها وتتسع، ثم تنتقل في طبقات البيت تنقّل عارفٍ قديم العهد به.

وضربت بكفيها على عادة الحجازيين استئذاناً بالدخول، فأجابها صوت يرحب بمَقدمها، فتقدمت تتبعها ((فكرة)) إلى بهو فاخر، تستقبلها عند بابه عجوز في قامة دقيقة منصوبة، وسحنة رقيقة سمحة.

وبعد أن حيَّتهما بمَقْدمهما، ودارت أكواب الشاي في صحاف من البلور، ابتدرت السيدة الحديث فقالت:

–كنت سمعتك تتحدثين عن ابنة لأخيك فقدتها في طريق الطائف، ولم يتصل بك خبرها.. فهل كانت لها ملامح خاصة تعرفينها بها فيما لو رأيتها؟؟

–إنها فُقدت في أوائل عامها الثاني، وليس لطفلة في تلك السن ملامح يمكن التعرف بها على شخصها! وبفرض ذلك.. فمن المستحيل أن تبقى محتفظة بملامحها فيما لو وُجدت، فإن مرور اثنتين وعشرين سنة كفيل بكل تغيير في ملامحها وشكلها وتكوين جسمها!!

–وإذا تركت هذا جانباً.. أليس في استطاعتي أن أعرف الحقيقة من الملابسات التي تُفقَد فيها ابنة من أحضان أبويها المسافرين.

–إن الملابسات في ذلك الظرف، كانت كأنما قد أُعدت إعداداً.. فقد كنت وأبواها مسافرين إلى الطائف في قافلة طويلة من أقاربنا وجيراننا وبني عمومتنا، وكنا نزولاً ليلتها في (السيل) من محطات الطائف، وغدونا مصبحين إلى رجالنا وليس للبنت من فرط دلالها قاعدة فيما يختص بركوبها، فهي أحياناً في حجر أمها، وأحياناً في حجر أبيها، ومرات قليلة موزّعة بين شقادف نفر عزيز علينا من أقاربنا، وكان نظام القافلة يجعل شقدف الأُم في الطليعة، ثم تتقاطر العير الخاصة بالأحمال بعده، ثم يأتي على إثره شقدفان لجماعة من بني عمنا من غير الأقارب الذين ذكرت، ثم يأتي على إثره الشقدف الخاص بي وأخي، ويتقاطر بعده غيره من جمال الأحمال أو الشقادف، فيقضي الوضع أن يفصل بين شقدفنا وشقدف الأم بعض جِمال للأحمال والشقادف، ويفصلنا عن أقاربنا بعض جمال لأبناء العم.

وعندما استوينا راكبين في غدوتنا من السيل، لم يدر بخلدنا أن نسأل عن البنت.. فأمها أحفل بها من أن تتركها، ولم يدر كذلك في خلد الأم أن البنت بعيدة عن حجر أبيها أو العزيزين من أقربائها.

وهكذا أدلجت بنا القافلة، وظلت تدلج إلى أن أمسينا في الطائف، فسألت أمها، وبحث أبوها، ودهش أقرباؤها، وكانت النتيجة أن البنت كانت مفقودة!!

واستأنف أخي عودته في نفر من مواليه إلى السيل، فلم يعثر على أثر لها، وعبثاً ضاعت جهودنا في البحث والتقصّي. وقال أعراب من المارة في السيل:

–إنهم رأوا نساءً من بادية الطائف كانت إحداهن تقل على كتفها بنتاً لها الأوصاف التي ذكرناها، إنهن كن يردن بها أعشاش المسافرين، قبيل الظهر وبعده، باحثات عن أهلها ثم لا يدرون بعد ذلك عنها شيئاً.

وقال بقَّالٌ من سكّان محطة السيل :إنه رأى النسوة إياهن، وكانت واحدة ترضعها من ثديها، والأخريات على كثب منها يسألْنَ، وإنه يغلب على ظنه أن النسوة كنَّ من أهالي القرى المجاورة للطائف من ناحية الشرق أو الشمال الشرقي.

وعبثاً جهدنا في البحث بين القرى التي أشار إليها، فلم نعثر على أثرها ..ولا أستبعد أن المرأة التي كانت ترضعها كانت ترغب في تبنِّيها أكثر من رغبتها في البحث عن أهلها، وإلاّ لما عدمت وسيلة من طريق الشرطة في الطائف، للوصول لأهلها، فلم يكن بحثها إلاّ قناعاً خادعاً، أرادت أن ترضي به عقلها الظاهر؛ أمّا ضميرها.. فقد كان منطوياً على استخلاصها لنفسها وتبنِّيها!

وندت عن ((فكرة)) آهة طويلة ورأت نفسها تقول :(رحمة الله عليها).

والتفتتا إليها في دهشة.. وابتدرتها العجوز صائحة :((أتعرفينها..؟)).

فلم تزد ((فكرة)) على أن ضحكت ثم رجت العجوز أن تمضي في حديثها.

–ليس لدي ما أمضي فيه، فقد كانت جميع محاولاتنا إلى عبث فاحتسبنا الله.. وليس في اعتقادي أنها ميتة، وإن كان الكثير يعتقد رفاتها سحيقاً حرزاً، يستوي في هذا أبوها وعموم قرابتنا .أما أخوها (سالم) فقد خلفناه يومها في

مكة، ولما وافانا بالطائف، تركناه يفهم أنها متوفاة، ولم نسمح لحرف واحد من قصتها أن يتسرب إليه.

وشعرت ((فكرة)) بقلبها يختلج، ومفاصلها ترتهك، وأحست برعدة تشيع في جسمها، وتطغى على صدرها فتضغط على أنفاسها، فتطرحت على نفسها وأسبلت عينيها.

وظلت على حالها ذلك مدة لم تطل، ثم تحاملت على نفسها، وملكت جأشها، وعادت تصلح من جلستها، وتضغط على مخارج الحروف بين شفتيها وتقول:

–وإذا تراءت لكم فتاة صادفها ما يشبه هذه الملابسات.. أفلا يمكن أن تجد في نفسها من العلامات الفارقة ما يطمئنكم ويقنعها؟

–لدي شخصياً علامة لا تقبل الشك.. فقد كان في إحدى ساقيها ممّا يلي الركبة، شامة مستديرة في حجم غير طبيعي يميل في لونه إلى الحمرة، وأعتقد أن مثل هذه العلامة لا يتناولها الزمن، وإذا تغير شيء من لونها.. فإن موقعها لا يناله التغيير، كذلك حجمها سيبقى فارقاً بينها وبين كل شامة طبيعية.

ورأت ((فكرة)) نفسها تكشف عن ساقها وتشير بيدها إلى الجزء الذي يلي ركبتها وهي تقول :((ألا يمكن أن تكون الشامة قريبة من هذه!!)).

وكانت شامة ((فكرة)) قد استدارت في حجم أكبر من الحجم الطبيعي، وضرب لونها بين الحمرة والصفرة.. نظرت إليها السيدة العجوز نظرة كانت فارقاً بينها وبين السمت الهادىء والجلسة الوقور، فقد ندت منها صرخة عالية ثم ألقت بنفسها عليها وهي تصيح:

((وابنتاه.. إنها ابنة أخي الغالية)).

ودخل سالم على صوت الضجة.. فإذا ((فكرة))، صديقته بين مسارح الوديان ومصاعد الجبال ومسارب الكهوف، تنطوي بين أحضان عمته، وسيل من القبلات ينثال على جبينها ووجنتيها.

وصاحت العمة :((إنها أختك يا سالم.. أختك آسيا من أبيك وأمك.. إنها أختك ولا عبرة بكل ما قلنا لك عن وفاتها)).

فما مَلَكَ سالم أن اندفع إليها وانهال على رأسها وجبينها لثماً وتقبيلاً.. ورأى نفسه يجمع أصابعه في أسفل ذقنها ويرفع وجهها في أناة رقيقة حتى يصافح عينيه المترقرقة بدمعة حادة ثم يقول لها:

–هنا أخوك.. هنا أخوك يا آسيا وليتني أعرف الماكر الذي أطلق عليك ((فكرة)) لأحاسبه على إمعانه في التضليل والختل.

قالت وهي تحيطه بذراعها :إن الأمر أهون من أن يحتمل المكر؛ فقد كنت طفلة لا أعي اسمي، وكان لا بد من أن يسمّوني ((رباب)) وعندما نشأت واكتمل فهمي كنت دائمة التعليق على كل حديث أسمعه، وكنت أبدأ معارضتي دائماً بجملة ((عندي فكرة)) ولزمتني هذه الجملة حتى أصبحَتْ علماً عليَّ، ومن ثَمَّ ظلوا ينادونني ((فكرة)) حتى غلبتْ عليَّ، وأصبحتْ اسمي.

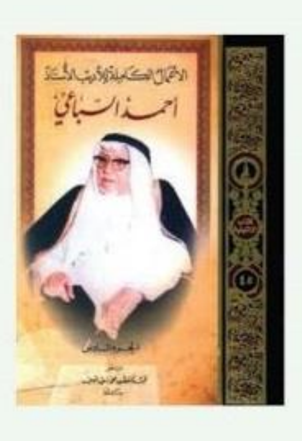
وتحدَّرت دمعته وهو يضع خده على رأسها ورأى نفسه مرة أخرى ينهال لثماً على جبينها ويقول:

–هنا أخوك يا فكرة.. أخوك الذي انتظرته طويلاً، وترقَّبته كثيراً، وحلمت به في ليالي الشتاء المقرورة، يقرأ لك من شعر أمية بن أبي الصلت وتقرئين له لزوميات المعرِّي.

[تمت بحمد الله تبارك وتعالى]



أحمد السباعي
(1905 - 1983)



| حقق المنجز الثقافي السعودي في القرن العشرين خطوات متقدمة، وتكونت المكتبة السعودية، من حقول ومجالات مختلفة، من المعارف والعلوم والآداب. هذه جولة في تلك المكتبة. |

أسس أحمد السباعي (رحمه الله) مدرسته الخاصة في الكتابة، وأسلوبه المتفرد الذي تغمره جزالة لمحات قرآنية تأسر الألباب، ورغم أنه أخذ بحظ يسير من التعليم النظامي إلا أن همته العالية لم تقتصر في طلب العلم من مظانه، فأسرج ليله وأضنى نهاره بين أمهات الكتب التي استطاع أن ينهل منها ويشكل ثقافته العامة، ثم اتجه إلى الكتابة الإبداعية بثقة كبيرة، تاركاً لأمته تراثاً أدبياً فيه من العمق ما لا تخطئه بصيرة، ومن الشفافية ما لا يخفيه مرور السنين، ومن الألق ما يشق سجف الظلام وإن تباعد زمان كتابته. فهو أديب مطبوع شق طريقه بإصرار وعفوية متلفعاً بالصبر والدأب شأن أبناء جيله ممّن استهانوا بالصعاب فوجدوا في اللأواء ملاذاً وظلاً أطيب بكثير من مراتع الجهل وخواء الفهم.

سعيد أن أهدي القارئ الكريم عصارة جهود أستاذنا الكبير المبرورة، راجياً أن يصلهم فكره وأدبه في صورة تليق به بعد أن تناثر لسنوات طوال في إصدارات متعددة، إن توفر نزر منها فإن جلها أصبح في عداد النادر. وفي هذا الصدد أشير إلى تعاون الأخوين الكريمين الأستاذ أسامة والدكتور زهير أحمد السباعي، اللذين لم يدّخرا جهداً لتوفير مادة هذه المجموعة الكاملة، وجمعها من مختلف المصادر حتى ظهرت ولله الحمد بالصورة التي بين أيديكم.

إن الحديث عن مسيرة أديبنا الكبير مقرونة بتصدّيه لإنشاء (مسرح قريش الإسلامي) بمبادرة شخصية منه في العام 1381هـ/1960م حيث كان من المقرر عرض مسرحية (فتح مكة) للأستاذ محمد مليباري (رحمه الله)، ولم يكتب لها أن ترى النور بسبب إلغاء العرض قبل أسبوع من موعده المحدد، فاختفى المسرح -بمعناه المتعارف عليه- إلى يومنا هذا، إلا من محاولات مدرسية، أو على خشبات مسرح فروع جمعية الثقافة والفنون.

بيد أن وأد تجربة المسرح لم تفت في عضد أديبنا المبدع (رحمه الله) فوجه طاقاته لمجالات الكتابة المختلفة، وحظيت التربية والاجتماعيات بنصيب وافر من إبداعاته. فقد تميز دائماً بنظرته التفاؤلية، واستشرافه المستقبل، باعتبار أن هذا الوطن ليس جزءاً من الحضارة الإنسانية فحسب، بل كان له السبق في نشر الوعي والنور في ربوع أوروبا عندما كانت تغط في سبات العصور الوسطى. ومهما التقط القارئ شاردة من هنا وواردة من هناك فإنه لن يروي غليله إلا الغوص في بحر مبدعنا اللجّي، فكوامن درره لا يلقي بها اليم إلى الساحل خبط عشواء، وإنما يظفر بها الغواص الذي يفوز بالدانة، يرغد وجدانه ويهدهد مشاعره.

ويصف السباعي طفولته وصباه من مذكراته الجميلة (أيامي):

(سمّاني أبي (أحمد) ودللتني أمي فكانت تناديني (أحمد حماده) وكانت أغنيتنا الدائمة وهي ترقّصني: (أحمد حماده لب القلادة أمه تحبه وأبوه زياده). ولا أزال إلى اليوم أذكر أني كنت دلّوعها كما أذكر كلمات الأغنية التي ظلت تدللني بها إلى الأيام الأولى التي كنت أدلج فيها إلى الكتّاب.

وشاركها أبي في تدليل طفولتي الأولى لأنه رزق بي في سن اليأس ولعله عقد على رأسي آلاف الآمال والأماني).

تنوعت كتابات السباعي بين السرد والتاريخ، وقد صدرت الأعمال الكاملة في خمسة مجلدات، تضم رواياته وقصصه وكتابه الرائع تاريخ مكة، بالإضافة إلى مجموعة من مقالاته.

سيبقى شخصية مميزة في مرحلته بكل انتصاراتها وخيباتها، فقد استطاع أن يكون أميناً لأحلامه وإن لم تتحقق!